الباب الأول

الفصل الأول

بيئة خوارزم

على بصيص ضئيل من النور – لقلة المراجع المسعفة والنصوص المؤيدة – نحاول تلمس السبيل إلى معرفة بيئة الزمخشري التي أنجبته . فقد ولد الزمخشري بزمخشر إحدى قرى خوارزم[1] – وخوارزم هذه يرى بارتولد أنها لا بد كانت منذ قديم ذات أهمية فى تقدم الحضارة فى آسيا الوسطى . وما ينبئنا به البيرونى عن بدء الحضارة فى خوارزم سنة ١٢٩٢ ق.م. هو طبعاً مجرد روايات[2] . إلا أن ما يذكره البيرونى من « إهلاك قتيبة بن مسلم الباهلى كتبة الخوارزميين وقتله هرابذتهم وإحراقه كتبهم وصحفهم »[3] ومن إشاراته إلى تقويم وأعياد الخوارزميين نرى أن خوارزم حتى القرن الثامن الميلادى ، ومدة الزرادشتيين إلى القرن الحادى عشر الميلادى قد ازدهرت فيها الثقافة الإيرانية القديمة .

وتتفق كلمة جغرافيي العرب ورحالتهم على خصب بقعة خوارزم . فالمقدسى يقول عنها : « هى كورة جليلة واسعة كثيرة المدن ممتدة العمارة . . . فيها المنازل والبساتين كثيرة المعاصر والمزارع والشجر والفواكه والخيرات مفيدة لأهل التجارات »[4] . أما ياقوت فيقول : وكنت قد جئتها سنة ٦١٦ هـ فما رأيت ولاية قط أعمر منها . . . متصلة العمارة متقاربة القرى كثيرة البيوت المفردة والقصور فى صحاريها قلّما يقع نظرك فى رساتيقها على موضع لا عمارة فيها ، هذا مع كثرة الشجر بها . . . وأكثر ضياع خوارزم مدن ذات أسواق

---

(١) وفيات الأعيان جـ ٢ لابن خلكان ص ١٠٧ – طبعة بولاق سنة ١٢٩٩ هـ .
(٢) دائرة المعارف الإسلامية مادة (خوارزم) .
(٣) الآثار الباقية للبيرونى ص ٣٦ و ٤٨ – طبعة أوربا .
(٤) أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم للمقدسى ص ٢٨٤ – طبعة أوربا .

وخيرات ودكاكين[١] وفى خوارزم يقول ابن بطوطة: «خوارزم . . . لها الأسواق المليحة والشوارع الفسيحة والعمارة الكثيرة والمحاسن الأثيرة وهى ترتج بسكانها لكثرتهم وتموج بهم موج البحر»[٢] .

ثم هى ثغر من ثغور الإسلام عرضة لغزوات غير المسلمين ، وكان لهذا أثره فى الحماس الدينى الذى ينشأ عليه أبناؤها . يقول ابن سمعة الكاتب عن خوارزم : «وهى ثغر من ثغور الإسلام قد اكتنفها أهل الشرك وأطافت بها قبائل الترك فغزو أهلها معهم دائم والقتال فيما بينهم قائم قد أخلصوا فى ذلك نياتهم وأمحصوا عن طوياتهم وقد تكفل الله بنصرهم فى عامة الأوقات ومنحهم الغلبة فى كافة الوقعات ثم حصنها الله بجيحون بواد عسر المعبر بعيد المسالك غزير الماء كبير المهالك فلا يتوغلها متوغل إلا خاطر بمهجته ولا سلك منافذها سالك إلا كان على يأس من سلامته»[٣] .

ويشير ياقوت إلى هذه الناحية الدينية فى أهل خوارزم بقوله : وكان المؤذن يقوم فى سحرة من الليل يقارب نصفه فلا يزال يزعق إلى الفجر (قامت)[٤] . ويقول أيضاً : «وما أظن كان فى الدنيا لمدينة خوارزم نظير فى. . . ملازمة أسباب الشرايع والدين»[٥] . وابن بطوطة يصور هذه الناحية بقوله : ولهم عادة جميلة فى الصلاة لم أرها لغيرهم وهى أن المؤذنين بمساجدها يطوف كل واحد منهم على دور جيران مسجده معلماً لهم بحضور الصلاة فمن لم يحضر الصلاة مع الجماعة ضربه الإمام بمحضر الجماعة ، وفى كل مسجد درة معلقة برسم ذلك ، ويغرم خمسة دنانير تنفق فى مصالح المسجد أو تطعم للفقراء والمساكين ، ويذكرون أن هذه العادة عندهم مستمرة على قديم الزمان[٦] .

---

(١) معجم البلدان لياقوت الحموى جـ ٥ ص ٤٨٢ – طبعة أوربا .
(٢) الجزء الثالث من رحلة ابن بطوطة ص ٣ – طبع المطبعة الأهلية بباريس .
(٣) الباب التاسع من مخطوط ربيع الأبرار للزمخشرى (بمكتبة بلدية الإسكندرية) .
(٤) معجم البلدان لياقوت جـ ٢ ص ٤٨٤ .
(٥) معجم البلدان لياقوت جـ ٢ ص ٤٨٦ .
(٦) الجزء الثالث من رحلة ابن بطوطة ص ٤ و ٥ .

وقد طبع هذا الإقليم الخصب الذى تتنوّع مناظره بين مزارع ومياه وصحارى أهله بطابعه . فكان لطبيعته الجميلة ووفرة أسباب المعيشة والترف فيه ؛ كان لهذا كله أثره فى صفاء أخيلة أدبائه وشعرائه وملهماً لهم ببنات الشعر وعقايل النثر . فتخرج منه جماعة من الأدباء والشعراء . . أفرد لأهل القرن الرابع منهم صاحب اليتيمة باباً فى كتابه[١] . وترجم ياقوت لبعض آخر حتى عصره[٢] وذكر آخرين السيوطى[٣] . وأنبت إقليم خوارزم الذى كان بحكم موقعه عاملا مؤثراً فى العاطفة الدينية لأهله — أنبت جماعة من المحدثين ذكر الخطيب البغدادى من عاش منهم حتى القرن الرابع[٤] . وهناك جماعة من العلماء خرجهم إقليم

(١) الباب الرابع فى غرر فضلاء خوارزم من كتاب يتيمة الدهر للثعالبى جـ ٤ ص ١٩٤ — ٢٥٥ — مطبعة حجازى بمصر .

(٢) منهم أحمد بن على الصفار الخوارزمى (جـ ٤ ص ٦٧ معجم الأدباء) وأحمد بن محمود أبو الحسين السهيلى الخوارزمى (معجم الأدباء جـ ٥ ص ٣١ و ٣٢) وأحمد بن إبراهيم الأديبى الخوارزمى (جـ ٢ ص ١٣١ معجم الأدباء) والقاسم بن الحسين بن محمد أبو محمد الخوارزمى (معجم الأدباء جـ ١٦ ص ٢٣٨) .

(٣) منهم محمد بن على بن إبراهيم الهراشى الكاتبى أبو عبد الله الخوارزمى (بغية الوعاة للسيوطى ص ٧٣) وعلى بن أحمد الحكيمى البديهى (بغية الوعاة للسيوطى ص ٣٢٨ و ٣٢٩) .

(٤) منهم : أحمد بن يحيى بن أبى العباس (تاريخ بغداد جـ ٥ ص ٢٠٤) — محمد بن عبد الله ابن إسحاق بن خازم أبو عبد الله الخوارزمى (تاريخ بغداد جـ ٥ ص ٤٧١) — الحارث بن سريج أبو عمر النقال (تاريخ بغداد جـ ٨ ص ٢١١) — داود بن رشيد أبو الفضل مولى بنى هاشم (تاريخ بغداد جـ ٨ ص ٣٦٧) — رشيد مولى المنصور (تاريخ بغداد جـ ٨ ص ٤٣٦) — مجاهد بن موسى بن فروخ أبو على الخوارزمى (تاريخ بغداد جـ ١٣ ص ٢٦٥ و ٢٦٦) — يوسف بن جعفر بن على أبو يعقوب الخوارزمى (تاريخ بغداد جـ ١٤ ص ٣١٣) — صالح ابن مالك أبو عبد الله الخوارزمى (تاريخ بغداد جـ ٩ ص ٣١٦) — طالب بن أحمد بن الخوارزمى (تاريخ بغداد جـ ٩ ص ٣٦٥) — عبد العزيز بن الخوارزمى (تاريخ بغداد جـ ١٠ ص ٤٥٤ و ٤٥٥) — أحمد بن محمد بن نصر المعروف بابن الخوارزمى (تاريخ بغداد جـ ٥ ص ١٠٨) — أحمد بن محمد بن على بن نمير أبو سعيد الخوارزمى الضرير (تاريخ بغداد جـ ٥ ص ٧١) — أبو بكر الخوارزمى المعروف بالبرقانى (تاريخ بغداد جـ ٤ ص ٣٧٣) — محمد بن موسى ابن محمد أبو بكر الخوارزمى (تاريخ بغداد جـ ٣ ص ٢٤٧) — محمد بن الحسن أبو الحسين صاحب النرسى خوارزمى الأصل (تاريخ بغداد جـ ٢ ص ١٨٦) — محمد بن جعفر بن بكر ابن إبراهيم أبو الحسين البزاز يعرف بابن الخوارزمى (تاريخ بغداد جـ ٢ ص ١٣٤) — محمد ابن أحمد بن إبراهيم أبو سعيد الخوارزمى (تاريخ بغداد جـ ١ ص ٢٦٩) .

خوارزم جمعوا بين علم العربية والأدب والعلوم الدينية[١] .

وهذه الخصيصة العلمية الأدبية التى تتسم بها البيئة الخوارزمية تصورها عبارة المقدسى إذ يصف أهل خوارزم : « أهل فهم وعلم وفقه وقرائح وأدب وقل إمام فى الفقه والأدب والقرآن لقيته إلا وله تلميذ خوارزمى تقدم وزجا »[٢] .

خصيصة أخرى تميز بها إقليم خوارزم ويعدها الزمخشرى رأس فضائلها وهو ما رزقته من المذهب السديد مذهب أهل العدل والتوحيد مع الباطشين فيه بقوة السواعد الرامين عنه بالنبل الصوارد الشاقين فيه دقائق الشعر المطيرين عن نحر أعدائه الثغر . وذلك فى كل زمان وخاصة فى زماننا هذا فقد أزهر الله فيها ما شاء من السرج وأطال فيها ألسنة الحجج[٣] .

وهذا ياقوت يسأل القاسم بن الحسين الخوارزمى المولود سنة خمسين وخمسمائة : قلت له : ما مذهبك. فقال : « حنفى ولكن لست خوارزميًّا ، يكررها ، إنما اشتغلت ببخارى فأرى رأى أهلها » نفى عن نفسه أن يكون معتزليًّا رحمه الله[٤] .

حتى إن حكمها حاكم من أهل السنة فهم على مذهبهم لا يحولون عنه . يقول ابن بطوطة : « والغالب على مذهبهم الاعتزال لكنهم لا يظهرونه لأن السلطان أوزبك وأميره على هذه المدينة قطلودمور من أهل السنة»[٥] بل هم فى مذهبهم

---

(١) ذكر الثعالبي منهم : الشيخ أبو محمد عبد الله بن محمد النامى الخوارزمى (يتيمة الدهر جـ ٣ ص ١٢٢) وذكر ياقوت منهم : أبو إسحاق نظام الدين المؤذنى (معجم الأدباء جـ ٢ ص ١٥ و ١٦) — وعلى بن عراق الصفارى أبو الحسن الخوارزمى (معجم الأدباء جـ ١٤ ص ٦٣) — أبو الفتح المطرزى الخوارزمى (معجم الأدباء جـ ١٩ ص ٢١٢) — وترجم لجماعة منهم السيوطى فى بغية الوعاة منهم : محمد بن إسحاق الخوارزمى شمس الدين الحنفى (بغية الوعاة ص ٢١ و ٢٢) — محمد بن محمود شمس الدين المعروف بالمعيد الحنفى (بغية الوعاة ص ١٠٣) — جابر بن محمد بن يوسف الخوارزمى الكاتبى (بغية الوعاة ص٢١١) وهما ابن أحمد الخوارزمى (بغية الوعاة ص ٤١٠) .

(٢) أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم للمقدسى ص ٢٨٤ و ٢٨٥ .

(٣) الباب التاسع من مخطوط ربيع الأبرار للزمخشرى (بمكتبة بلدية الإسكندرية) .

(٤) معجم البلدان لياقوت جـ ١٦ ص ٢٣٩ .

(٥) الجزء الثالث من رحلة ابن بطوطة ص ٨ — طبع المطبعة الأهلية بباريس .

الفقهى أصحاب لأبى حنيفة القائل بالرأى والقياس[١] .

فهذه النصوص متضافرة على أن بيئة خوارزم كانت مرتعاً للاعتزال . والواقع — كما سجل التاريخ — أن الاعتزال كان آنئذ ومنذ القرن الثالث على وجه التحديد حين ولى الحكم المتوكل سنة ٢٣٢ هـ كان الاعتزال قد بدأ يندثر اسمه فى الأقطار التى غلب عليها أهل السنة وخاصة بعد ظهور مذهب الأشاعرة الذى اتخذ موقفاً وسطاً بين السنة والاعتزال . يقول ابن خلكان : « وكانت المعتزلة قد رفعوا رءوسهم حتى أظهر الله الأشعرى فحجرهم فى أقماع السمسم »[٢] .

والمقدسى الذى جاب العالم الإسلامى فى القرن الرابع يجلى هذه الحقيقة فهو لم يجد فى الشام إلا قليلا من المعتزلة وكانوا فى خفية[٣] ، وفى الأندلس لم يعثر لهم على أثر ، فقد كان أهل الأندلس جميعاً مالكيين وكانوا إذا وقعوا على معتزلى أو شيعى ربما قتلوه[٤] .

لكن إن خمل ذكر المعتزلة فى الأقطار التى سيطر عليها أهل السنة فقد ذاع اسمهم فى الأقطار التى حكمها الشيعة . ذلك أن المعتزلة منذ القرن الرابع حالفوا الشيعة الذين كان يحكم منهم بنو بويه فى فارس سنة ٣٣٢ هـ . يقول المقريزى : « إن مذهب الاعتزال فشا تحت ظل الدولة البويهية فى العراق وخراسان وما وراء النهر »[٥] وكان أقوى نصير له الصاحب بن عباد الذى وزر لفخر الدولة البويهى ثمانية عشر عاماً (٣٦٧ — ٣٨٥ هـ)[٦] جمع حوله فيها المعتزلة ورقاهم إلى المناصب العالية وبذل ماله فى نشر الاعتزال والدعوة له . وقد فطن ياقوت إلى أن الناس ما دخلوا فى مذهب الصاحب وقالوا بقوله إلا رغبة فيما لديه[٧] .

---

(١) أحسن التقاسيم للمقدسى ص ٣٢٢ .
(٢) وفيات الأعيان جـ ١ ص ٥٨٧ .
(٣) أحسن التقاسيم للمقدسى ص ١٧٩ .
(٤) أحسن التقاسيم للمقدسى ص ٢٣٦ .
(٥) خطط المقريزى جـ ٤ ص ١٨٤ — طبعة دار الطباعة المصرية ببولاق سنة ١٢٧٠ هـ .
(٦) معجم الأدباء جـ ٦ ص ٢٥١ .
(٧) معجم الأدباء جـ ٦ ص ٢٢٥ .

ومن ثم بدأ الاعتزال ينحسر عن البصرة وبغداد إلى المشرق . حتى إن المقدسى (ت ٣٩١ هـ) وجد أكثر الشيعة فى بلاد العجم معتزلة وأكثر فقهائهم من المذاهب الثلاثة على الاعتزال[١] وأن العوام فى الرى يتابعون الرأى الاعتزالى فى خلق القرآن حتى لتقع العصبيات بينهم فى ذلك[٢] ،وفى خوزستان ألفى معظم السكان معتزلة[٣] .

(١) أحسن التقاسيم للمقدسى ص ٤٣٩ .

(٢) أحسن التقاسيم للمقدسى ص ٣٩٥ و ٣٩٦ .

(٣) أحسن التقاسيم للمقدسى ص ٤١٥ .

obeikandl.com

الفصل الثانى

نشأة الزمخشرى

فى بيئة خوارزم التى تحدثنا عنها فى الفصل السابق ولد الزمخشرى بإحدى قراها (زمخشر) يوم الأربعاء السابع والعشرين من شهر رجب سنة سبع وستين وأربعمائة[1] فى عهد السلطان جلال الدنيا والدين أبى الفتح ملكشاه الذى يقاس عهده فى عظمته وفخامته بأزهر عهود الدولة الرومانية أو العربية حيث ازدهرت التجارة والصناعة وزهت الآداب والفنون[2] وكان يعاونه فى إدارة الملك وزيره نظام الملك الذى «يعد أقدر وزراء الإسلام طرًّا بعد يحيى البرمكى»[3]. ونظام الملك هذا كان رجلا دينّاً له مجالس يحضرها أئمة الدين من قراء وفقهاء ومحدّثين، كما أنه أنشأ المدارس فى الأمصار المختلفة لتعليم الحديث بل كان هو يمليه، وفى ذلك يقول ابن الأثير: «كان عالماً دينّاً جواداً عادلا حليماً كثير الصفح عن المذنبين طويل الصمت؛ كان مجلسه عامراً بالقراء والفقهاء وأئمة المسلمين وأهل الخير والصلاح، أمر ببناء المدارس فى سائر الأمصار والبلاد وأجرى لها الجرايات العظيمة وأملى الحديث بالبلاد ببغداد وخراسان»[4]. وعرف عن نظام الملك حبه للعلم واصطفاؤه النابغين من العلماء فتوفر الآباء على تعليم أبنائهم حتى يحظوا بالمناصب العالية التى كان يقسمها درجات ويرشح لكل بحسب فضله وعلمه؛ فيذكر العماد الأصفهانى أنه فى أيامه نشأ للناس أولاد نجباء وتوفر على تهذيب الأبناء الآباء ليحضروهم فى مجلسه ويحظوا بتقريبه فإنه كان يرشح كل أحد لمنصب يصلح له بمقدار

---

(١) وفيات الأعيان ج ٢ ص ١١٠.

(٢) مختصر تاريخ العرب لسيد أمير على ص ٢٧٢ – مطبعة لجنة التأليف سنة ١٩٣٨ م.

(٣) مختصر تاريخ العرب لسيد أمير على ص ٢٧٠.

(٤) تاريخ الكامل لابن الأثير ج ١٠ ص ٧٢ ط سنة ١٣٠٣ هـ.

ما يرى فيه من الرشد والفضل ومن وجد فى بلدة قد تميز وتبحر فى العلم بنى له مدرسة ووقف عليها وقفاً وجعل فيها دار كتب[١] ، ومن ثم نشأ فى عصره طبقات الكتاب المجيدين الذين ولوا المناصب العالية ، وبسط نظام الملك عليهم حمايته فوفر لهم الرزق ووسع عليهم العيش وأمنهم غوائل الزمن لينصرفوا إلى علمهم ولا يشغلوا بمأكلهم . يقول العماد الأصفهانى : « وفى عصره نشأ طبقات الكتاب الجياد وفرعوا المناصب وولوا المراتب ولم يزل بابه مجمع الفضلاء وملجأ العلماء وكان ناقداً بصيراً ينقب عن أحوال كل منهم ويسأل عن تصرفاته وخبرته فمن تفرس فيه صلاحية الولاية ولاه ومن رآه مستحقًّا لرفع قدره رفعه وأعلاه ومن رأى الانتفاع بعلمه أغناه ورتب له ما يكفيه من جدواه حتى ينقطع إلى إفادة العلم ونشره وتدريس الفضل وذكره وربما سيره إلى إقليم خال من العلم ليحلّى به عاطله ويحيى به حقه ويميت باطله »[٢] ، وهذه التوسعة على العلماء والأدباء جعلت فرضاً على الدولة ، عليها أن تؤديه إليهم أبداً ليظلوا دوماً فى مأمن من عوارض الزمن . فيروى العماد : أنه — أى نظام الملك — لما وفر الأموال على الخزانة والعسكر جعل فيها لأرباب العلوم وأصحاب الحقوق حقوقاً لا تؤخر ورسوماً لا تغير وصير إحسان السلطان بين أهل العلم ميراثاً يأخذونه بقدر الفرائض ويأمنون بها من النوائب والعوارض[٣] .

فى هذا العهد إذن الذى كان يشجع العلم ويبسط حمايته على العلماء نشأ الزمخشرى وعليه تفتحت عينه ونشأ فى أسرة قليل ما نعرفه عنها اللهم إلا بقدر ما حكى هو عنها . نعلم عنها أنها أسرة ذات تقوى لا تخالف فى أمر الدين شهر ذلك عنها وعرف بين الناس أمرها فيقول من قصيدة :

هات التى شبهت ظلماً بشمس ضحى ... لو عارضتها لغطتها بإشراق
أستغفر الله أنى قد نسبت بها ... ولم أكن لحمياها بذواق

---

(١) تاريخ آل سلجوق للعماد الأصفهانى ص ٥٤ الطبعة الأولى سنة ١٣٧٢ هـ — مطبعة دار التأليف .

(٢) تاريخ آل سلجوق للعماد الأصفهانى ص ٥٤ ، ٥٥ .

(٣) تاريخ آل سلجوق للعماد الأصفهانى ص ٥٦ .

ولم يذقها أبى كلا ولا أحـــد من أسرتى واتفاق الناس مصداقى[1]

ويكشف الزمخشرى نفسه ما كان لوالدته من عاطفة رقيقة شفيقة فيروى : « كنت فى صباى أمسكت عصفوراً وربطته بخيط فى رجله فأفلت من يدى فأدركته وقد دخل فى خَرْق فجذبته فانقطعت رجله فى الخيط فتألمت والدتى لذلك وقالت : قطع الله رجلك . . كما قطعت رجله . . »[2] إن أبسط الأشياء فى حياة الإنسان صغيراً قد تكون أشدها انطباعاً على ذاكرته وأعمقها تأثيراً فى نفسه . إن الأم طبعاً لم تقصد أن يتحقق دعاؤها ، ولكن شاء القدر أن تقطع رجل ولدها . وهكذا رسخت فى نفسه هذه الحادثة . فلعل أمه طبعته منذ طفولته على أن يكون راعياً لله فى خلقه من حيوان أو إنس ولعلها كانت تذكره دوماً بعاقبة قسوته على الطير لينشأ مفطوراً على رعاية الدين فلا يتعرض لأحد بإيذاء أو مضرة .

ثم هو ينبئنا أن والده سجين مؤيد الملك (المتوفى سنة ٤٩٤ هـ) فالزمخشرى يستعطفه لإطلاق سراح أبيه المعيل :

أكفى الـكفاة مؤيد الملك الذى خضع الزمـان لعـزه وجلاله
ارحم أبى لشبـابه ولفضلـه وارحمـه للضعفاء من أطفاله
ارحم أسيراً لو رآه من العـدى أقساهم قلبـاً لرق لحالـه
ما أطـول الليل الذى يفنيـه فى سهر وأطول منـه ليل عيـاله
يشكو قيـوداً قصرت من خطوه وسلاسلا حكمت بضيـق مجاله
ما ضر مثلك لو عفـا عنه فمن دأب الـكرام العفو عن أمثاله
هب أنه ممن أسـاء فـا لـه غلب الرزانـة منك سوء فعاله[3]

ولا نعرف لم سجن والده ؟ وأغلب الظن أن سجنه لسبب سياسى فالزمخشرى يتوسل إلى سجانه أن يطلقه مستشفعاً بفضل أبيه وعلمه وأنه شاب قد خلف وراءه ذرية ضعافاً. ويخيل إلى أن الزمخشرى فقد والدته طفلا فهو لا يجرى هنا

---

(١) مخطوط ديوان الأدب للزمخشرى ورقة ٨٥ .
(٢) وفيات الأعيان جـ ٢ ص ١٠٧ .
(٣) مخطوط ديوان الأدب ورقة ٩٧ .

لها ذكراً فى استشفاعه . ومؤيد الملك هذا يصفه ابن الأثير بأنه كان سيئ السيرة [١] والأشرار دوماً مسلطون على الأخيار وهكذا كان حظ والد الزمخشرى أن وقع فى يد مؤيد الملك وتعرض لأذاه . ويظهر أنه مات من أثر سجنه فقد سجن شاباً ومات وهو قريب عهد بالشباب، فالزمخشرى يبكى فقد أبيه ولما يشخ ويبكى فيه الورع والتقى والفقر من المال :

فقدته فاضلا فاضت مآثره ... العلم والأدب المأثور والورعُ
أخا طباع مصفاة مناسبه ... ماء السحابة ما فى بعضها طبَعُ
وذا حقائق لا فى لحظه طلبٌ ... لغير رشد ولا فى لفظه قذعُ
لم يأل ما عاش جداً فى تقاه يرى ... أن الحريص على دنياه منخدع
صام النهار وقام الليل وهو شج ... من خشية الله كابى اللون ممتقع
من المروءة فى علياء مُتسعٌ ... صدراً وإن لم يكن فى المال متسع
قريب عهد بوخط الشيب عارضه ... أثر الشباب ووحف الليل متَّبَعُ [٢]

وهذا يوقفنا على أن والد الزمخشرى كان — وهو الشاب — عالماً أديباً قد تمكن من نفسه الدين فهو يقوم الليل ويصوم النهار فعل المنقطع للعبادة ثم هو ذو خلق مصفى قليل المال وهذه صفات — إن اعتبرنا ما قد يكون من الشعر من مبالغة — تنبئ عن تقوى صاحبها وعزوفه عن الدنيا وهو فى ريق شبابه . ويظهر أن والده توفى وهو عنه بعيد لأن الزمخشرى كان طالباً للعلم وكان والده يحس بلذعة فراقه ولكنه يتصبر ويتحمل رغبة فى تعليم ابنه وتهذيبه فإن الزمخشرى يقول من القصيدة السابقة عينها :

وإن مما قرانى حسرة وأسى ... وضافنى الكرب من جراه والوجع
أن عاقنى شحط دار عن تفقده ... حتى مضى وهو من ذكراى ملتذع
يا حسرتا أننى لم أرو غلته ... وغلنى بزمان فيه نجتمع
قد كنت أشكو فراقاً قبل منقطعاً ... وكيف لى بعده بالعيش منتفع [٣]

---

(١) تاريخ الكامل لابن الأثير جـ ١٠ ص ١٠٥ .
(٢) مخطوط ديوان الأدب ورقة ٧٢ .
(٣) مخطوط ديوان الأدب ورقة ٧٢ .

ويحدثنا عن جماعة من أقاربه تخطفهم الموت واحداً إثر الآخر :

ما للنوائب لا ينفك ديدنها ... غمى وهجيرها قهرى وإذلالى
أودت بجدى وما أبقت أخى وطوت ... عمى وصادت بأسباب الردى خالى[1]

ثم يرثى خالا له آخر فيقول :

يا خير خالين إنى بعد فقدكما ... من لوعة وأسى فى شر حالين
وإن فرقة خال واحد حطمت ... ظهرى فكيف إذا فارقت خالين[2]

وهكذا كان الزمخشرى وهو لما يزل غضًّا طريًّا يمتحن فى صبره وخلقه ويسلبه الموت كل نصير أو معين فى دنياه . هذا هو كل ما استطعنا أن نعثر عليه من معلومات عن أسرته ؛ أسرة فقيرة تقية ظفرت بحظ من علم وأدب ومضى أكثرها فى حياة الزمخشرى . والغموض الذى يحيط بأسرته هو عينه الذى يكتنف نشأته العلمية . فالزمخشرى يقول — كما يروى ابن خلكان : « إنه لما بلغ سن الطلب رحل إلى بخارى لطلب العلم »[3] ، وبخارى منذ الدولة السامانية شهرت بالآداب فكانت كما يصفها الثعالبى مثابة المجد وكعبة الملك ومجمع أفراد الزمان ومطلع نجوم أدباء الأرض وموسم فضلاء الدهر[4] . قد يكون والده دفع به إلى هناك ليثقف العربية والأدب فيحظى بالمناصب التى كان يرقاها كل أديب نابغ فى عهد نظام الملك ، وما من شك أيضاً فى أنه ثقف فيما ثقف هناك الحديث فوالده رجل دين والوزير الذى يرعى العلم محدث يروى الحديث ويبنى المدارس لتعليمه ؛ ولكن على كل حال الصورة الواضحة لنشأته العلمية تتلمذه على محمود بن جرير الضبى الأصفهانى أبو مضر النحوى (المتوفى سنة ٥٠٧ هـ) وهذا الأستاذ « كان يلقب فريد العصر وكان وحيد دهره وأوانه فى علم اللغة والنحو يضرب به المثل فى أنواع الفضائل . أقام بخوارزم

---

(١) مخطوط ديوان الأدب ورقة ١٠٠ .
(٢) مخطوط ديوان الأدب ورقة ١١٤ .
(٣) وفيات الأعيان لابن خلكان جـ ٢ ص ١٠٧ .
(٤) يتيمة الدهر للثعالبى جـ ٤ ص ١٠١ .

مدة وانتفع الناس بعلومه ومكارم أخلاقه وأخذوا عنه علماً كثيراً وتخرج عليه جماعة من الأكابر فى اللغة والنحو، وهو الذى أدخل على خوارزم مذهب المعتزلة ونشره بها فاجتمع عليه الخلق لجلالته وتمذهبوا بمذهبه »[1] فالضبى هذا كان مبرّزاً فى علم اللغة والنحو حتى ليلقب بفريد العصر، وقد انتفع الزمخشرى بمقدرة أستاذه فى هذه الناحية وأسهم التلميذ من جانبه بنشاط عظيم فى اللغة والنحو، بل إنا لنلمح فى الحقيقة منهجاً طريفاً فى البحث النحوى عند الزمخشرى فمثلا نراه فى كتابه (المفصل) يقيم بحثه النحوى على عمد ثلاثة : الاسم — الفعل — الحرف . ولعل هذا المنهج وهذا الأسلوب فى تناول النحو ومعالجته من روح أستاذه . ثم هو ذو منهج طريف أيضاً فى بحثه اللغوى فمثلا فى معجمه (أساس البلاغة) نجده يبحث فى اللفظة ومعانيها حينما ترد حقيقة ثم يتعقب اللفظة عينها فى استعمالاتها المجازية فى الكلام وهو حريص على أن يكسب اللفظة حيوية — إن حقيقة أو مجازاً — بإيرادها فى تركيب فصيح أو تعبير بليغ يجلى معناها ويلقى الضوء عليه . فهل هذه الناحية عنى أستاذه بها وورثها تلميذه ؟ أعتقد ذلك فالمعتزلة — والضبى واحد منهم — عُنوا باللغة وتناولوها تناولا يستطيعون أن يفيدوا منه فى ناحيتهم الكلامية الجدلية وهم قد درسوا المنطق والفلسفة فليس عجيباً أن يكون تناولهم اللغة والنحو على أساس علمى منطقى منظم . ثم الضبى معتزلى متكلم وقد كان داعية كبيراً للاعتزال فى وقت انحسر فيه الاعتزال عن معظم الأقطار الإسلامية وانحجز فى الأقطار التى يغلب عليها اسم الشيعة . بل إن آخر ما نسمعه عن الاعتزال نسمعه فى خوارزم هذه التى نشر الضبى فيها الاعتزال . ولن نكون مبالغين تعبيراً إن قلنا إن الضبى كان شديد العصبية للاعتزال ذا حمية فى نشره وإذاعته بخوارزم . وهذه الروح المتعصبة المتحمسة بثها فى نفس تلميذه الزمخشرى . وسنرى أن الزمخشرى نشأ متحمساً للاعتزال مذيعاً لتعاليمه حتى ليروى عنه أنه كان إذا قصد صاحباً له واستأذن عليه فى الدخول يقول لمن يأخذ له الإذن قل له

---

(١) معجم الأدباء لياقوت جـ ١٩ ص ١٢٣ و ١٢٤ .

أبو القاسم المعتزلى بالباب[١] بل إن خوارزم كلها دانت بمبدأ المعتزلة وكانت كلمة خوارزمى مرادفة تماماً لكلمة معتزلى — كما مر بنا — ومكن لأن يؤثر الضبي هذا التأثير فى نفوس الناس ما وهبه من خلق فاضل وأدب جملت به نفسه وعون للناس فيما ينوبهم من نوائب ويحزبهم من مصائب . فعاون علمه وخلقه على أن يؤثر هو فى الناس ويبلغ غرضه منهم وأن يتأثروا هم به ويفيدوا منه العلم والأدب . وهذه الشخصية العالمة المتأدبة سنراها تنعكس على نفس تلميذه الزمخشرى فينشأ صورة ثانية من أستاذه ،وفيها كذلك آثار العوامل الأخرى التى كونتها — كما سنلم بذلك بعد . على كل حال نشأ الزمخشرى نشأة أدبية لغوية كلامية وكان أثر أستاذه الضبى فيه من هذه النواحى أثراً قوياً يعترف له به الزمخشرى فيقول من قصيدة فى رثائه :

فقلت لطبعى هات كل ذخيرة ... فمن أجله ما زلت أدخر الذخـــرا
وأبرزْ كريمـــات القوافى وغرّهـــا ... فمنه استفدنا العلم والنظم والنثرا[٢]

وأستاذه هذا العربى صليبة قد بث فى قلب تلميذه حب العرب والعصبية لهم فهو يمدح أستاذه بالمحبب إليه بذكر أرومته العربية :

مساعى فريد الدهر مستغربانها ... معطلة إن قويست كل مقياس
جرين من السيـــد بن ضبة فى الذرى ... وضبة من أدبن الياس فى الراس
هم ديمة منهلة ساعـــة النـــدى ... وهم شهب منقضـــة ساعة الباس[٣]

ثم هو يتناسى أصله الفارسى فيطعن الشعوبية ويفخر بالعرب فيقول من قصيدة عدد فيها مفاخر العرب وضروب شجاعتها وانتصارها على الفرس ؛ يقول موجهاً حديثه للشعوبية :

وقل هل فشا فى الأرض غير لسانهم ... لسان فشو الضوء واليوم شامس
به عج فى أمصارهـــا كل منـــبر ... وطنت به فى الخافقـــين المدارس

---

(١) وفيات الأعيان ج ٢ ص ١٠٨ .
(٢) مخطوط ديوان الأدب ورقة ٥٧ .
(٣) مخطوط ديوان الأدب ورقة ٦٤ .

على ظهرها لم يخلق الله أمة … تناسبهم فى خصلة أو تلابس
يقايس بين الناس حتى إذا انتهى … إلى العرب المقياس طاح المقايس
وواحدة تكفيك هاتيك حجة … بساطعها تنشق عنك الحنادس
أجل رسول منهم وبلسنهم … أجل كتاب فاعتبر يا منافس
وقل للشعوبيين إن حديثكم … أضاليل من شيطانكم ووساوس
لكم مذهب فسل يغر بمثله … أشايب حمقى لا الرجال الأكايس[١]

ولن نقول إنه صار عربياً على الفرس فى وقت خمدت فيه جذوة الشعوبية — ولكنا نقول إنه صار إسلامياً لا هو بالفارسى المتحمس ولا بالعربى المصطنع الحمية لهم — وهذه النظرة إنما هى نظرة من اتسع أفقه العقلى وسما تفكيره. فلعل أسرته الدينة وبيئته المسلمة التى كانت فى نزاع دوماً مع جيرانهم الكفار نضحاً عن الإسلام — كما مر بنا قبل — ثم ما اتسم به عصر الزمخشرى من نزاع بين المسلمين والصليبيين وحروب تستعر بينهم باسم الدين إلى جانب عربية أستاذه وخلقه — لعل هذا كله أصل فى أعماق نفس الزمخشرى حب العرب دينهم وعلمهم وأوطانهم فصار إسلامياً خالصاً. فهو يؤلف كتاب المفصل فى النحو لما بالمسلمين من الأرب إلى معرفة كلام العرب[٢] ويؤلف كتاب مقدمة الأدب لتعليم الفرس العربية ذلك لأن الحاجة إلى اللسان العربى سائحة فى الملة الإسلامية[٣].

(١) مخطوط ديوان الأدب ورقة ٦١ .
(٢) مقدمة المفصل شرح ابن يعيش — ط أوربا .
(٣) مقدمة الأدب للزمخشرى ص ١ وما بعدها .

obeikandi.com

الفصل الثالث

رحلات الزمخشرى

لم تكن الصلة بين الضبى والزمخشرى صلة العلم التى تربط بين الأستاذ وتلميذه، ولكن كان الضبى يرعى تلميذه ويعينه بالمال إن احتاج ويدفع عنه الخطوب والمحن إن ألمت به . يقول الزمخشرى فى إحدى مدحه مقرًّا بعون أستاذه الضبى :

إليك نظام الملك شكواى فاستمع ... إلى بث مجذوذ المعايش ضنكها
طريح خطوب كل يوم تنوبه ... ببائقة تنحى عليه بركها
ولو لم يل الضبى عنى عراكها ... لغالت يد البلوى أديمى بعركها[1]

ثم كان أستاذه الضبى هذا الصلة بينه وبين ساح الملوك ، والمعتزلة منذ بدء نشأتهم كانوا يمكنون لمذهبهم بالاتصال بالسلطان الحاكم وقد يكون أقوى مظهر لهذا اتصالهم بالمأمون الذى حمل الناس على القول بخلق القرآن . والضبى كمعتزلى سار سيرة أسلافه فاتصل بالوزير نظام الملك الذى ألمعنا إلى فضله على العلم والعلماء ، ويظهر أن الضبى كان مقرباً من نظام الملك فإنا نرى الزمخشرى فى إحدى مدحه لنظام الملك يقرر هذه الصلة القوية ويستشفع بها لدى الوزير يقول :

ثنائى لصدر الملك ما عشت دايم ... وإن دعائى مثله فى دوامه
جعلتهما وردى نهارى وليلتى ... كفعل الفتى فى صومه وقيامه
وكان فريد العصر عبداً مقرباً ... وما أنا إلا هضبة من شمامه
وقد أوجب المولى لنا فى قبيله ... قضاء زمام الحر بعد حمامه
فإن يرعنى المولى بحسن اصطناعه ... فقد تمم المولى قضاء ذمامه[2]

---

(١) مخطوط ديوان الأدب ورقة ٩١ .
(٢) مخطوط ديوان الأدب ورقة ١٠٤ .

فى أغلب الظن أن الضبى هذا وصله بنظام الملك لأنه وجده خير تلاميذه فى العلم ثم خير تلاميذه فى الدعاية للاعتزال من بعده ؛ فأراد رفعة شأنه وأن يقوى من نفوذه بأن يصله بالسلطان. وصله أول ما وصل بنظام الملك ؛ ذلك الوزير الذى كان يقرب العلماء ويبسط عليهم حمايته، ويغدق من أموال الدولة عليهم ويجعل ذلك حقًّا مرسوماً لهم ويوليهم المناصب والدرجات العالية كفاءة علمهم وأدبهم . اتصل الزمخشرى إذن بنظام الملك وقال فيه مدحاً كثيرة ونال أنعمه وتغنى بشكره . يقول الزمخشرى لنظام الملك :

إليك ربيب الملك أشكر أنعماً ... ليمناك هطالا على ربابها
ودائمة منى لك الدعوة التى ... يجوب السماوات العلى مستجابها[1]

والزمخشرى فى شبابه ومطلع حياته العلمية ذو آمال كبار ومطامع فسيحة المدى يستشرف بعينيه مستقبلا ينعم فيه بسلطان ومرتبة عالية ؛ فوسع اتصالاته بكبار رجال الدولة فى عهد السلطان جلال الدنيا والدين أبى الفتح ملكشاه ، ومدحهم ونال نوالهم . ولكن لم يكن المال مرماه فحسب وإنما السلطان أيضاً فقد رأى أصحاب المناصب دونه فى العلم ودونه فى الخلق، وتمر الأيام وآماله فى المنصب هواء فتأسى وحزن وتغنى بآلامه من دنيا ترفع الحقير وتضع العظيم . يقول :

خليلى هل تجدى على فضائلى ... إذا أنا لم أرفع على كل جاهل
من الغبن ذو نقص يصيب منازلا ... أخو الفضل محقوق بتلك الفضائل
كفى حزناً أن يرغم الحلم والحجا ... تصدر باد طيشه غير عاقل
ومن لى بحتى بعدما وفرت على ... أراذلها الدنيا حقوق الأماثل
كذا الدهر كم شوهاء فى الحلى جيدها ... وكم جيد حسناء المقلد عاطل[2]

وتشكى إلى نظام الملك فى قصائد توجها بمديحه وختمها بشكاواه إذ يرى من دونه قد تصدروا ورقوا المناصب :

---

(١) مخطوط ديوان الأدب ورقة ١٣ .

(٢) مخطوط ديوان الأدب ورقة ٩٥ .

أحظى منقوص ولست بناقص وكم كامل حظًّا وليس بكامل
فلا ترض يا صدر الكفاة بأن ترى أعالى قــوم ألحقــوا بأسافــل
ولا تجعلونى مثل همــزة واصل فيسقطنى حذف ولا راء واصل
فكل امرئ آماله عدد الحصى وهات نظيرى فى جميع المحافل
لئن كان أمرى فى خوارزم ما أرى فات رحالى فى ظهــور الرواحل
وكم قلت ألقى فى وزارتك المــنى وأدرك وحدى ما ارتجى كل آمل
ولم أدر أن الأرذلــين يرون مــا تمنــوا وأنى لست أحظى بطائل
فوقع إلى هــذا الزمان فإنــه غلامك يجعلنى كبعض الأراذل[1]

لم يتحقق أمل الزمخشرى ببلده ففكر فى الرحيل عن وطنه الذى لم يبلغه آماله وأركبه فى الحياة مركباً صعباً يقول :

أحب بلاد الله شرقاً ومغربــاً إلىّ التى فيهــا غذيت وليــدا
ولكن تواسى بالــكرامة غيرهــا وهذى أرى فيها الهوان عتيــدا
وما منزل الإذلال للحــر منزلا وإن كان عيش الحر فيه رغيدا
سأرحل عنها ثم لست براجع وأضرب مرمى فى البلاد بعيــدا
فلا كنت إن ضمت فيها ابن حرة ولا عشت بين الصالحين حميدا[2]

خاب أمله ببلده ولكن نفسه طامحة طامعة فلجأ إلى خراسان ومدح بها جماعة من أصحاب الصولة والدولة منهم مجير الدولة أبا الفتح على بن الحسين الأردستانى الذى استنابه تاج الدولة عنه فى ديوان الطغراء والإنشاء فى عهد السلطان جلال الدنيا والدين أبى الفتح ملكشاه وصار كاتب الرسائل وكان أوحد عصره ونسيج وحده[3] ونرى الزمخشرى هنا يعرض على ممدوحه كتبه اللغوية متوسلا :

وأصبحت كالمقصوص ريش جناحه أنوء بركن كلما قمت جانح
فعند مجير الدولة المستجــار لى مداواة أدواء وأســو جرائــح

---

(١) مخطوط ديوان الأدب ورقة ٩٥ .
(٢) مخطوط ديوان الأدب ورقة ٣٧ .
(٣) تاريخ آل سلجوق للعماد الأصفهانى ص ٥٨ .

نطاسى آمال مراض وجابــر   لــكسر مهيضات الخطوب الفوادح
فليت رحالى ألقيت بفنــائــه   فأرتــعَ فى نعمائه غير نازح
ويقدح زنداً وارياً من مناقبى   إذا صلــدت كل الزناد بقادح
وفى شرح أبيات الكتاب لبعض ما   يرى فى صفاتى مجملا أى شارح
وأنموذجاً أنفــذت منــه يضمه   رجائى أرى فيه وجوه المنــاجح
أراقب من عين الوزير اطلاعة   عليه وحسبى منــه لمحــة لامح(١)

كذلك امتدح فى خراسان مؤيد الملك عبيد الله بن نظام الملك الذى تولى ديوان الإنشاء والطغراء أيام جلال الدنيا والدين السلطان أبى الفتح ملكشاه(٢) وفيه يقول العماد الأصفهانى : « كان مصرفاً للسيف والقلم عارفاً بلغتى العرب والعجم .. ولم يكن فى أولاد نظام الملك أكفى منه وكان أوحد العصر بليغاً فى النظم والنثر »(٣) امتدحه الزمخشرى وما زال الأمل فى المنصب يداعب خياله ، يقول لمؤيد الملك :

إليك عبيدَ الله أنهــى شكايتى   نكاية دهــر ينتحى بصيالــه
بحقك فازجره ومــره لينتهى   فأمرك أمضى من مواضى نبــالــه
وقل يا زمان الســوء ما لك قاصداً   لمن عرف الناسُ اهتمامى بحــاله
فأنت الذى الديوان طوع لحــكمه   وذلك طوق فى رقاب رجــاله
وأنت الذى إن قال شيئــاً يريده   فما فيهم من ينثنى عن مقاله(٤)

ويظهر أنه لم ينل شيئاً مما أمل فغادر خراسان إلى أصفهان مقر السلطان السلجوقى محمد بن أبى الفتح ملكشاه (المتوفى سنة ٥١١ هـ) « وكان عادلا حسن السيرة شجاعاً ومن محاسن أعماله ما فعله مع الباطنية . . . فإنه رحمه الله تعالى لما علم أن مصالح البلاد والعباد منوطة بمحو آثارهم وإخراب ديارهم وملك

(١) مخطوط ديوان الأدب ورقة ٢٣ .
(٢) تاريخ آل سلجوق للعماد الأصفهانى ص ٥٧ .
(٣) تاريخ آل سلجوق للعماد الأصفهانى ص ٧٨ ، ٧٩ .
(٤) مخطوط ديوان الأدب ورقة ٩٧ .

حصونهم وقلاعهم جعل قصدهم دأبه »[١]، ونلمح هنا أن الزمخشرى يمدحه بأفعاله التى خدم بها الإسلام وهو لا يسأله منصباً أو جاهاً فى دولته فلعله وطد نفسه على الفشل إذ تطمع فى المنصب يقول :

محمد بن أبى الفتح الذى تركت ... أوصاف لُـكْنته فى كل منطيق
ابن السلاطين من أبناء سلجوق ... وابن الغطارف منهم والغرانيق
لله من عادل من حق سيرته ... ونصره الحق أن يدعى بفاروق
مستوجب من جموع الشرك مبغضة ... محبب فى بنى الإسلام مرموق[٢]

وفى سنة ٥١٢ هـ مرض الزمخشرى مرضاً شديداً ترك لفكره العنان أن يستعرض ما مر به من أحداث وصور فى حياته، وعاهد ربه فى نجواه الفكرية إن شفى من مرضته هذه التى سماها الناهكة ألا يطأ عتبة السلطان أو يمدحه أو يطمع فى منصب[٣] ؛ أغذ السير إلى بغداد حيث ناظر بها[٤] كما سمع الحديث من أبى الخطاب بن البطر[٥] ومن أبى سعد الشفانى وشيخ الإسلام أبى منصور الحارثى[٦]، واجتمع بالفقيه الحنفى الدامغانى[٧] وبالشريف ابن الشجرى[٨]. ثم أراد أن يغسل ذنوبه كما صورتها له نفسه، تلك الذنوب هى الطمع فى المنصب واستجداء عطيات الملوك والكبار وشاءت نفسه أن يفر من جوار الملوك حيث خابت آماله وأن يلجأ إلى جوار ملك الملوك حيث لا يخيب الراجى ، فرحل إلى مكة ، وفى طريقه إليها تغنى بتلك المعانى :

سيرى تماضر حيث شئت وحدثى ... أنى إلى بطحاء مكة سائر

---

(١) تاريخ الكامل لابن الأثير ج ١٠ ص ١٨٤ ، ١٨٥ .
(٢) مخطوط ديوان الأدب ورقة ٨٦ .
(٣) مقامات الزمخشرى ص ٨ ط سنة ١٣١٢ هـ .
(٤) المختصر فى أخبار البشر لأبى الفداء ج ٣ ص ١٧ ط القسطنطينية سنة ١٢٨٦ هـ .
(٥) طبقات المفسرين للسيوطى ص ٤١ ط – أوربا .
(٦) بغية الوعاة للسيوطى ص ٣٨٨ – مطبعة السعادة سنة ١٣٢٦ هـ .
(٧) وفيات الأعيان ج ٢ ص ١٠٧ .
(٨) نزهة الألباء فى طبقات الأدباء لابن الأنبارى ص ٤٧٠ – ط سنة ١٢٩٤ هـ . مصر .

حتى أنيخ وبين أطماري فتى ... للكعبة البيت الحرام مجاور
متعوذ بالركن يدعو ربه ... يشكو جرائر بعدهن جرائر
يشكو جرائر لا يكاثرها الحصى ... لكنها مثل الجبال كبائر
والله أكبر رحمة والله أكـ ... ـثر نعمة وهو الكريم القادر
وأحق ما يشكو ابن آدم ذنبه ... وأحق من يشكو إليه الغافر
فعسى المليك بفضله وبطوله ... يكسو لباس البر من هو فاجر
يا من يسافر فى البلاد منقباً ... إنى إلى البلد الحرام مسافر
إن هاجر الإنسان عن أوطانه ... فالله أولى من إليه يهاجر
وتجارة الأبرار تلك ومن يبع ... بالدين دنياه فنعم التاجر
تالله ما البيع الربيح سوى الذى ... عقد التقى وكل بيع خاسر
خربت هذا العمر غير بقية ... فلعلنى لك يا بقية عامر
وعهدتنى فى كل شر أولا ... فلعلنى فى بعض خير آخر
فى طاعة الجبار أبذل طاقتى ... فلعلنى فيها لكسرى جابر
سأروح بين وفود مكة وافداً ... حتى إذا صدروا فما أنا صادر
بفناء بيت الله أضرب قبتى ... حتى يحل بى الضريح القابر
ألقى العصا بين الحطيم وزمزم ... لا يطيبنى أخوة وعشائر
ضيفاً لمولى لا يُخيل بضيفه ... ويبذل أقصى ما تمنى الزائر
حسبى جوار الله حسبى وحده ... عن كل مفخرة يعد الفاخر
سأقيم ثَمَّ وثُم تدفن أعظمى ... ولسوف يبعثنى هناك الحاشر[1]

وجاور الزمخشرى بمكة جواره الأول حيث لقى رعاية من الأمير العلوى على ابن عيسى بن حمزة بن وهاس وكان شريفاً جليلا هماماً من أهل مكة وشرفائها وأمرائها ؛ ذا فضل غزير ، وله تصانيف مفيدة وقريحة فى النظم والنثر مجيدة[2] يقول فيه :

---

(١) مخطوط ديوان الأدب ورقة ٤٣ .
(٢) معجم الأدباء لياقوت جـ ١٤ ص ٨٥ .

ومما أجل الصنع فيه إناختى بمكة مرضياً مراداً وموردا
لولا ابن وهاس وسابغ فضله رعيت هشيماً واستقيت مصرّدا[١]

وفى مكة قرأ الزمخشرى كتاب سيبويه على عبد الله بن طلحة اليابرى (المتوفى سنة ٥١٨ هـ)[٢] ولبث فى جواره هذا عامين — كما سنعرض لذلك بعد — زار فيهما كل بقعة من بقاع أرض العرب. يقول الزمخشرى: «ووطئت كل تربة فى أرض العرب»[٣]؛ ومما زار همدان باليمن حيث مدح هناك آل زرير وفى ذلك يقول:

وكم قلت فى خوارزم عند ترحلى لركائبى سيرى إلى همدانا
لو لم أقل سيرى إلى همدان ما همدت بنا فى سيرها همدانا
وإلى الكرام بنى زرير لم تزل تجفو بنات غرير الأوطانا
وبنو زرير ما تزر ثيابهم إلا على الهضبات من ثهلانا[٤]

ثم اشتاق إلى وطنه وتجدد أمل الغنى بالمنصب والمال ثانية فى نفسه؛ فرحل عن مكة. ولكن خاب أمله ورجع صفر اليدين؛ فتحسر لفرقته مكة وأخذ يبكى رحيله عنها فى قصائد كثيرة حفل بها ديوانه؛ منها قوله:

ولى نفس شبه اللهيب تصعدت به زفرة كالنار زاكية الجمر
يذيب مضايف الشؤون بحره فتجرى شآبيب الشؤون على نحرى
بكاء على أيام مكة أن بى إليها حنين النيب فاقدة البكر
تذكرت أيامى بها فكأننى قد اختلفت زرق الأسنة فى صدرى
أبيت على الصخر المبارك باكياً كما كانت الخنساء تبكى على صخر
وحين تخطينا المناقب وارتمت بنا العيس تهوى فى مسالكها القفر
وشط بأصحابى عن الأبطح السرى ولط الجبال المشمخرات بالستر
وقلت ألا أين الحطيم وزمزم وما لى محجوزاً عن الركن والحجر

(١) الورقة الأولى من مخطوط ديوان الأدب.
(٢) بغية الوعاة للسيوطى ص ٢٨٤.
(٣) أساس البلاغة للزمخشرى ج ١ ص ٧٨ مادة (ت ر ب) ط. دار الكتب سنة ١٣٤١ هـ
(٤) مخطوط ديوان الأدب ورقة ١١١.

صفرت وراء الغور صفـــرة مفلس ... رأى يده صفراً من البيض والصُّفر
وقلت لقلبي قد ملــكتك مرة ... فما أنت إلا طائر طار عن وكر[١]

ولم يجد إلا نفسه لينحى عليها باللائمة وإلا الحزن ليكابده والدمع ليذرفه فهو القائل :

أأبتاع بالفوز الشقـــاوة خاسراً ... وأستبدل الدنيا الدنيـــة بالأخرى
إذا خطرت بالبال ذكرى إناختى ... على حـــرم الله استفزتنى الذكرى
أكابد ليلا كالليالى وحسرة ... ودمعاً غزير المستقى غائر المجرى
وأدعو إلى السلوان قلبـــاً جوابه ... لداعيه مهراق من المقلة العبرى
وما عذر مطروح بمـــكة رحلـــه ... على غير بوس لا يجوع ولا يعرى
فما فـــرّ عنهـــا يبتغى بدلاً لهـــا ... وربك لا عذراً وربك لا عذرا[٢]

وحين وصل إلى وطنه خوارزم كان الزمن قد ابتسم له ، ذلك أنه كان فى خوارزم بيت ملك يؤسسه محمد بن أنوشتكين الملقب بخوارزمشاه (المتوفى سنة ٥٢١ هـ) وكان قبل والياً على خوارزم فى عهد بركياروق ، « وقد قصر خوارزمشاه أوقاته على معدلة ينشرها ومكرمة يفعلها وقرب أهل العلم والدين فازداد ذكره حسناً ومحله علوًّا . ولما ملك السلطان سنجر خراسان أقر محمداً خوارزمشاه على خوارزم وأعمالها فظهرت كفايته وشهامته فعظم سنجر محله وقدره »[٣] ، ويظهر أن الزمخشرى نال عنده حظوة فإنه يمدح فيه رعاية العلم والأدب يقول :

وقد خدمت بشيئين استوى بهما ... أمر الملوك ودان السيـــف والقـــلم
هذا لكتب الأيادى واصل جدب ... وذا لكتب الأعادى صارم خذم
للكتب هذا وهذا للكتائب فى ... يومى ندا وردى داع ومنتقم
صرير هـــذا يبارى فى مهابته ... صليل ذاك فقد هابتهما البهم
أى الملـــوك تلاقت فى مجالســـه ... غرائب العلم والآداب والحـــكم[٤]

---

(١) مخطوط ديوان الأدب ورقة ٤١ .
(٢) مخطوط ديوان الأدب ورقة ٤١ .
(٣) تاريخ الكامل لابن الأثير جـ ١٠ ص ٩٢ و ٩٣ .
(٤) مخطوط ديوان الأدب ورقة ١٠٧ .

obeikandl.com

فلما توفى محمد خوارزمشاه ظل الزمخشرى على مكانته عند ابنه أتسز (المتوفى سنة ٥٥١ هـ) «الذى مد ظلال الأمن وأفاض العدل وكان قد قاد الجيوش أيام أبيه وقصد بلاد الأعداء وباشر الحروب ولما ولى بعد أبيه قربه السلطان سنجر وعظمه واعتضد به واستصحبه معه فى أسفاره وحروبه فظهرت منه الكفاية والشهامة فزاده تقدماً وعلوًّا»[١] وبأمر أتسز هذا حررت نسخة من كتاب الزمخشرى (مقدمة الأدب) لخزانة كتبه. وفى مقدمة هذا الكتاب يحدثنا الزمخشرى عن فضل ممدوحه على الأدب والعلم ورعايته لأهلهما — وما من شك فى أنه عن نفسه يحكى الرعاية به والعناية — يقول: «... والذى اصطفاه الله فى زماننا لنصرة الأدب وقذف فى قلبه الرغبة فى كلام العرب الأمير الأجل الأسفهسلار بهاء الدين علاء الدولة أبو المظفر أتسز بن خوارزم شاه أدام الله علاءه ونصر لواءه؛ فغاية لذته فى بهاء الدين مجالسته الأفاضل وقصارى لهوه فى منادمته الأماثل ولا يزال ظل كرمه الواسع عليهم ممدوداً وجنابهم بإنعامه الفائض مجوداً وصلاته وخلعه مترادفة عندهم متوالية رائحة إليهم غادية وقد رسم لى أمره العالى زيد علوًّا بتحرير نسخة من كتاب (مقدمة الأدب) لخزانة كتبه المعمورة ففعلت على رسمه وجعلت الكتاب موسوماً باسمه لأن هذا الكتاب قد أصاب قبولا من القلوب وهب فى البلاد مهب الصبا والجنوب فأردت ألا يزال مذكوراً فى كل مكان وزمان يكون اسمُه العزيز جارياً على كل لسان»[٢].

وأحس الزمخشرى من نفسه الكبر وعاوده الحنين إلى الجوار بمكة وألحت نفسه عليه فى ذلك ولم يقر لها قرار حتى عاد بعد إلى مكة وفى طريقه إليها مر بالشام وامتدح صاحب دمشق تاج الملك المتوفى سنة ٥٢٦ هـ[٣] الذى قتل من الباطنية ستة آلاف نفس وجمع العرب والتركمان لملاقاة الفرنج الذين حاصروا

---

(١) تاريخ الكامل لابن الأثير جـ ١٠ ص ٩٢ و ٩٣.

(٢) مقدمة الأدب للزمخشرى ص ١ — ٣ ط. أوربا سنة ١٨٤٣ م.

(٣) تاريخ الكامل لابن الأثير جـ ١٠ ص ٢٤٣.

دمشق فهزمهم شر هزيمة سنة ٥٢٣ هـ[١] . ثم امتدح الزمخشرى من بعده ابنه شمس الملك الذى ولى بعد أبيه تاج الملك سنة ٥٢٦ هـ[٢] .

وأغذ السير إلى مكة حيث دخلها سنة ٥٢٦ هـ . وجاور بها جواره الثانى ثلاث سنين ألف فيها تفسيره (الكشاف)، وفى جواره بمكة مرتين ومدته يقول :

فجاورت ربى وهو خير مجاور ... لدى بيته المحرم عاكفا
أقمت بإذن الله خمساً كواملا ... وصادفت سبعاً بالمعرف واقفا
وتم لى الكشاف ثم ببلدة ... بها هبط التنزيل للحق كاشفا
وزرت ابن عباس بوجّ ونمنمت ... يدى عند رأس الحبر منه طرائفا[٣]

وفى جوار الزمخشرى الثانى بمكة لقى من ابن وهاس ما عوده منه ومن صحبه من كرم الوفادة والإجلال .

وفيما لقيه الزمخشرى من كرم ابن وهاس وحفاوة صحبه به تقول مدّحته :

بمكة آخيت الشريف وفتية ... توالية من آل النبي غطارفا
وكنت عليهم من أعز نفوسهم ... أعز وكل كان صنواً ملاطفا
لكل موال لى وليًّا مناصحاً ... لكل معاد لى عدوًّا مكاشفا
يتابع أن نوظرت ردءاً لشاغب ... وينهض أن ذوكرت ردءاً مكانفا
متى أقبل العلامة انتفضوا له ... وحيوه حيا الله تلك المعارفا
وهشوا إليه باسطين أسرة ... بماء الحياء الهاشمى نواطفا
كركب عطاش بعد يأس تباشروا ... بأن أبصروا ذا هيدب متكاثفا
وكان ابن وهاس لجنبى فارشاً ... كما تفعل الأم الحفية لاحفا
رأيت مع الإجلال منه تكرماً ... كما صاب ربعى الحيا مترادفا

---

(١) تاريخ الكامل لابن الأثير جـ ١٠ ص ٢٣٤ و ٢٣٥ . وقصيدة مديحه ورقة ٣٨ مخطوط ديوان الأدب .

(٢) تاريخ الكامل لابن الأثير جـ ١٠ ص ٢٤٣ وقصيدة مديحه بمخطوط ديوان الأدب ورقة ٩٩ .

(٣) مخطوط ديوان الأدب ورقة ٧٩ .

على باب أجيـاد بنى لى منزلا كركـن شمام بالصفـا متواصفا
وأنفق فى إتمـامه من تلاده ثقيلات وزن فى البلاد خفائفا[١]

ويظهر أن ابن وهاس كان أيضاً يناصر الزمخشرى رأيه الاعتزالى . فالزمخشرى يقول فى إحدى مدحه له :

علىّ بكْرُ ذى المجديـن عيسى علىٌّ فى سراة بـنى عـلىّ
علا الأشراف كلهم ومـا من سلاح فيـه فضـل المشرفىّ
تقول إذا بـدا مَـلَـكٌ كريم كسـاه الله هيـكلَ آدمىّ
وقل يا أمنع الثقلـين جاراً جزاك الله عـن شيـخ أبىّ
بعيد المستـلاذ كليل ظفـر عن الأنصـار فى بلد نطىّ
غضبت له وذلك نبض عـرق كريم غضبـة النمـر الأبىّ
زأرت وراء ديـن العـدل زأراً وقـد نبحت كلاب المغربىّ
فقد أشجيتهـن بكـل عظـم تَنَشَّب فى اللهاة وفى المرىّ
ومن يغضب لديـن الله يجمـع مراضيـه إلى الأجـر السـنى
وليـس الجـبر والتشبيـه إلا بقية إرث ديـن جـاهـلى
فقم بالعـدل والتوحيـد فيه تُقِم يا ابن النبى هـدى النبى[٢]

وبإشارة ابن وهاس جمع الزمخشرى منظوماته فى (ديوان الأدب) يقول فى مقدمة الديوان : « . . .

ومما أجل الصنع فيه إناختى بمكة مرضيا مراداً وموردا
ولولا ابن وهاس وسابغ فضله رعيت هشيماً واستقيت مصردا

. . . ولولا ذاك وأن أمرك موسوم أخدعاى بوجوب امتثاله موضوع حزاى لاحتذاء مثاله للقيت منى حين اقترحت علىّ جمعى نفاسات قريحتى وطلبت إلى الإسجاح بمجاجات سجيحتى ركناً عن الإجابة فروراً وجلداً من المساعفة به مقشعرًّا ولصادفت دونه باباً مرتجاً وعالجت بين يديه قفلا عسراً مستلجاً »[٣].

---

(١) مخطوط ديوان الأدب ورقتا ٧٩ و ٨٠ .
(٢) مخطوط ديوان الأدب ورقة ١١٦ .
(٣) مخطوط ديوان الأدب ورقتا ١ و ٢ .

وبإشارته أيضاً ألف الزمخشرى تفسير الكشاف – موضوع بحثنا[١] .

وعاود الزمخشرى الحنين إلى وطنه فاتخذ سمته إليه وفى طريقه إليه مر ببغداد سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة وقرأ بعض كتب اللغة على أبى منصور الجواليقى . يقول أبو اليمن زبيد بن الحسن الكندى الملقب تاج الدين (المتوفى سنة ٦١٣ هـ): « كان الزمخشرى أعلم فضلاء العجم بالعربية فى زمانه وأكثرهم اكتساباً واطلاعاً على كتبها وبه ختم فضلاؤهم . . . قدم علينا بغداد سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة ورأيته عند شيخنا أبى منصور الجواليقى مرتين قارئاً عليه بعض كتب اللغة من فواتحها ومستجيزاً لها لأنه لم يكن له على ما عنده من العلم لقاء ولا رواية »[٢]. ثم بلغ وطنه حيث وافته منيته بجرجانية خوارزم سنة ٥٣٨ هـ[٣] ؛ وقد رأى قبره الرحالة ابن بطوطة[٤] .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٣ – الطبعة الأولى بالمطبعة الشرقية سنة ١٣٠٧ هـ .
(٢) وفيات الأعيان لابن خلكان جـ ١ ص ٢٤٥ .
(٣) وفيات الأعيان لابن خلكان جـ ٢ ص ١١٠ .
(٤) رحلة ابن بطوطة ص ٦ الجزء الثالث .

الفصل الرابع

نشاطه العلمى

أفرغ الزمخشرى شطراً كبيراً من حياته للعلم والتأليف، ذلك لأنه منذ أول الأمر ابتعد عن كل مشغلة : اعتزل النساء ونسلهن يقول :

تصفحت أولاد الرجـــال فلم أكد ... أصادف من لا يفضح الأم والأبا
رأيت أباً يشـــقى لتربية ابنـــه ... ويسعى لـــكى يدعى مكبًّا ومنجبا
أراد بـــه النشء الأغر فمـــا درى ... أيوليـــه حجراً أم يعليـــه منكبا
أخو شقـــوة ما زال مركب طفله ... فأصبح ذاك الطفل للنـــاس مركبا
لذاك تركت النسل واخترت سيرة ... مسيحية أحسن بذلك مذهبا[1]

وهو أيضاً القائل : « لا تخطب المرأة لحسنها ولكن لحصنها فإن اجتمع الحصن والجمال فذاك هو الكمال وأكمل من ذلك أن تعيش حصوراً وإن عمرت عصوراً »[2]. وكان فى مذهبه هذا صارماً لا يحيد عنه حتى لامه قومه فيه :

يموّه قومى بالتنصـــح لومهـــم ... وإن عنـــاء لومهم والتنصـــح
يلومـــونى أنى نأيت بجـــانبى ... عن النسل ألوى عنه رأسى وأجمح[3]

ولكنه وهب نفسه للعلم فالتلاميذ والتآليف خير عنده من النسل :

وحسبى تصانيفى وحسبى رواتهـــا ... بنين بهـــم سيقت إلى مطالبى[4]

ويظهر أنه أخذ العظة من والده وكان كثير العيال فقيراً فاختار حياة يهدأ فيها ويعكف على نفسه وعلمه لا يشغله شاغل أو يعوقه معوق . ثم هو فاقد

---

(١) مخطوط ديوان الأدب ورقة ١٨ .
(٢) المقالة السابعة والتسعون من كتاب أطواق الذهب فى المواعظ والخطب للزمخشرى ص ١٠٧ مطبعة السعادة سنة ١٣٢٨ هـ .
(٣) مخطوط ديوان الأدب ورقة ٢٦ .
(٤) مخطوط ديوان الأدب ورقة ٩ .

لإحدى رجليه[١] ولابد أن لذلك أثره فى نفس الزمخشرى ؛ فهو ضعيف يريد أن يتقوى ؛ فاقد لأحد أعضائه فبغيته التعويض ومن ثم اتجهت طاقته للعلم يأخذ منه مستفيداً ويعطى الناس مفيداً . كان للعلم محرراً فدرس الكلام وعلومه والحديث والتفسير وأدواته واللغة والنحو والأدب وفنونه وهكذا ألم بثقافة واسعة المدى . ويفخر بما ناله من حظ فى ذلك جميعه يقول :

ترانى فى علم المنزل عالماً ... وما أنا فى علم الأحاديث راسفا
فللسنة البيضاء فىّ مناجح ... ويبغى كتابُ الله منى المعارفا
وما أنا من علم الديانات عاطلا ... بأحسن حلى لم يزل لى شانفا
فكم قد وحت يمناى منه دفاتراً ... وكم قد وعت أذناى منه وطائفا
وما للغات العرب مثلى مقوم ... أبى كل ندب متقن أن يخالفا
وبى يستعيذ النحو من أن يسوسه ... نهى لم يجدها الذائقون حصائفا
فقل أين خلى سيبويه كتابه ... يقل حجر جار الله مأوى حالفا
وما فى رواة الكتب راوية له ... سوى واحد فانظر فلست مصارفا
وعلما المعانى والبيان كلاهما ... أزف إلى الخطاب منه وصايفا
وعلم القوافى والأعاريض شاهد ... بفسحة خطوى فيه إذ كنت زاحفا
أقرت بى الآداب أصلا لها ومن ... رأى مشرفيات جحدن المشارفا
وديوان منظومى يريك بدائعاً ... وديوان منثورى يريك طرائفا[٢]

وهكذا انقطع الزمخشرى للعلم وأخلص له فجل فيه وذاع فضله وعظم فى أعين الناس حتى أثنى عليه العلماء كلهم ممن ترجموا له . يقول فيه السمعانى : « كان يضرب به المثل فى علم الأدب والنحو »[٣] ؛ ويقول ابن خلكان : « كان إمام عصره غير مدافع تشد إليه الرحال فى فنونه »[٤] ؛ وفيه يقول ابن الأنبارى : « كان نحوياً فاضلا »[٥] . ويحكى ابن الأنبارى رأى ابن الشجرى

(١) وفيات الأعيان جـ ٢ ص ١٠٧ .
(٢) مخطوط ديوان الأدب ورقة ٧٨ .
(٣) الأنساب للسمعانى ص ٢٧٧ — ط ليدن سنة ١٩١٢ م .
(٤) وفيات الأعيان لابن خلكان جـ ٢ ص ١٠٧ .
(٥) نزهة الألباء فى طبقات الأدباء جـ ١ ص ٤٦٩ .

اللغوى فى الزمخشرى فيقول : « وقدم (أى الزمخشرى) إلى بغداد للحج فجاءه شيخنا الشريف ابن الشجرى مهنئاً له بقدومه فلما جالسه أنشده الشريف :

كانت مساءلة الركبان تخبرنى ... عن أحمد بن دؤاد أطيب الخبر
حتى التقينا فلا والله ما سمعت ... أذنى بأحسن مما قد رأى بصرى

وأنشده أيضاً :

وأستكبر الأخبار قبل لقائه ... فلما التقينا صغر الخبر الخُبر

وأثنى عليه »[١] .

ويقول عنه ياقوت : « كان إماماً فى التفسير والنحو واللغة والأدب واسع العلم كبير الفضل متفنناً فى علوم شتى »[٢].ويذكر الأمير أبو الحسن على بن عيسى بن حمزة بن وهاس الحسنى العلوى طيران اسم الزمخشرى فى الآفاق، يقول :

وكم للإمام الفرد عندى من يد ... وناهيك مما قد أطاب وأكثرا
أخى العزمة البيضاء والهمة التى ... أنافت بها علامة العصر والورى
جميع قرى الدنيا سوى القرية التى ... تبوأها داراً فداء زمخشرا
وأحرِ بأن تزهى زمخشر بامرئ ... إذا عد فى أسد الشرى زمخ الشرا
فلولاه ما طن البلاد بذكره ... ولا طار فيها منجداً ومغورا
فليس ثناها بالعراق وأهله ... بأعرف منها بالحجاز وأشهرا[٣]

ويقول الزمخشرى عن نفسه :

ألم تر أنى حيثما كنت كعبة ... يحفون بى كالطائفين طوائفا
فشرقيهم يهوى إلى النور قابساً ... وغربيهم يسعى إلى البحر غارفا[٤]

ويقول أيضاً :

« وإنى فى خوارزم كعبة الأدب »[٥]

---

(١) نزهة الألباء فى طبقات الأدباء جـ ١ ص ٤٧٠ ، ٤٧١ .
(٢) معجم الأدباء لياقوت جـ ١٩ ص ١٢٦ .
(٣) معجم البلدان لياقوت جـ ٢ ص ٩٤٠ .
(٤) مخطوط ديوان الأدب ورقة ٧٩ .
(٥) مخطوط ديوان الأدب ورقة ٨ .

وقد كون الزمخشري مدرسة علمية ينشر فيها علمه ويبث تعاليمه، تلمذ له فيها جماعة . يقول السمعاني : « وظهر له جماعة من الأصحاب والتلامذة، وروى عنه أبو المحاسن إسماعيل بن عبد الله الطويلي بطبرستان وأبو المحاسن عبد الرحيم ابن عبد الله البزار بأبيورد وأبو عمرو عامر بن الحسن السمسار بزمخشر وأبو سعد أحمد بن محمود الشاتي بسمرقند وأبو طاهر سامان بن عبد الملك الفقيه بخوارزم وجماعة سواهم »[١] وتلمذ له محمد بن أبي القاسم بايجوك أبو الفضل البقالي الخوارزمي الآدمي الملقب زين المشايخ النحوي الأديب كان إماماً في الأدب وحجة في لسان العرب أخذ اللغة وعلم الأعراب عنه وجلس بعده مكانه وسمع الحديث منه ومن غيره[٢]، وتلقى العلم عنه يعقوب بن علي بن محمد بن جعفر أبو يوسف البلخي ثم الجندلي أحد الأئمة في النحو والأدب وازمه [٣]، وأخذ العلم عنه علي بن محمد بن علي بن أحمد ابن مروان القمراني الخوارزمي أبو الحسن الأديب يلقب حجة الأفاضل وفخر المشايخ وفيه يقول صاحب تاريخ خوارزم : القمراني حجة الأفاضل سيد الأدباء قدوة مشايخ الفضلاء المحيط بأسرار الأدب والمطلع على غوامض كلام العرب قرأ الأدب على فخر خوارزم محمود بن عمر الزمخشري فصار أكبر أصحابه وأوفرهم حظًّا من غرائب آدابه . . . سمع الحديث من فخر خوارزم . . وكان يذهب مذهب الرأي والعدل[٤]. فهذا النص يوقفنا على أن الزمخشري كما كان يعلم تلاميذه الأدب واللغة والحديث كان يبث فيهم أيضاً ثقافته الكلامية ومعتقده الاعتزالي . وقرأ عليه الموفق بن أحمد بن أبي سعيد إسحاق أبو المؤيد المعروف بأخطب خوارزم وكان متمكناً في العربية غزير العلم فقيهاً فاضلا أديباً شاعراً[٥]، وتلمذ له كذلك علي بن عيسى بن حمزة بن وهاس أبي الطيب من ولد سليمان بن حسن

---

(١) الأنساب للسمعاني ٢٨٨ .

(٢) معجم الأدباء لياقوت جـ ١٩ ص ٥ .

(٣) معجم الأدباء لياقوت جـ ٢٠ ص ٥٥ .

(٤) معجم الأدباء لياقوت جـ ١٥ ص ٦١ و ٦٢ و ٦٥ .

(٥) بغية الوعاة للسيوطي ص ٤٠١ .

ابن على بن أبى طالب عليه السلام وكان شريفاً جليلا هماماً من أهل مكة وشرفائها وأمرائها وكان ذا فضل غزير وله تصانيف مفيدة وقريحة فى النظم والنثر مجيدة قرأ على الزمخشرى بمكة وبرز عليه وصرفت أعنة طلب العلم إليه[١] .

كما طلب الإجازة والرواية من الزمخشرى جماعة من العلماء فأم المؤيد زينب بنت الشعرى (ت ٦١٥ هـ) كانت عالمة وأدركت جماعة من أعيان العلماء وأخذت عنهم رواية وإجازة منهم العلامة أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشرى[٢] ؛ والحافظ أبو طاهر أحمد بن محمد السلفى[٣] رحمه الله تعالى كتب إلى الزمخشرى من الإسكندرية وهو يومئذ مجاور بمكة يستجيزه فى مسموعاته ومصنفاته فرد جوابه بما لا يشفى الغليل فلما كان فى العام الثانى كتب إليه أيضاً مع الحجاج استجازة أخرى اقترح فيها مقصوده ثم قال فى آخرها : ولا يحوج أدام الله توفيقه إلى المراجعة فالمسافة بعيدة . وقد كاتبته فى السنة الماضية فلم يجب بما يشفى الغليل وله فى ذلك الأجر الجزيل[٤] . وطلب الإجازة من الزمخشرى رشيد الدين الوطواط الأديب الكاتب الشاعر ، وكان من نوادر الزمان وعجائبه وأفراد الدهر وغرائبه ،أفضل زمانه فى النظم والنثر وأعلم الناس بدقائق كلام العرب وأسرار النحو والأدب طار فى الآفاق صيته وسار فى الأقاليم ذكره ، وكان ينشئ فى حالة واحدةبيتاً بالعربية من بحر وبيتاً بالفارسية

---

(١) معجم الأدباء لياقوت جـ ١٤ ص ٨٥ .

(٢) وفيات الأعيان لابن خلكان جـ ١ ص ٢٤٧ .

(٣) ترجم له ابن خلكان فى الوفيات جـ ١ ص ٣٧ و ٣٨ قال : أحد الحفاظ المكثرين رحل فى طلب العلم ولقى أعيان المشايخ وكان شافعى المذهب،ورد بغداد واشتغل بها على الكيا أبى الحسن على الهراسى فى الفقه وعلى الخطيب أبى زكريا يحيى بن على التبريزى اللغوى وروى عن أبى محمد جعفر بن السراج وغيره من الأئمة الأماثل وجاب البلاد وطاف الآفاق ودخل ثغر الإسكندرية سنة إحدى عشرة وخمسمائة وأقام به وقصده الناس من الأماكن البعيدة وسمعوا عليه وانتفعوا به ولم يكن فى آخر عصره مثله وبنى له العادل أبو الحسن على بن السلار وزير الظافر العبيدى صاحب مصر سنة ست وأربعين وخمسمائة مدرسة بالثغر المذكور وفوضها إليه وهى معروفة به إلى الآن .

(٤) وفيات الأعيان جـ ٢ ص ١٠٨ .

من بحر آخر ويمليهما معاً [١]. ويذكر براون أنه كان كاتباً وشاعراً لأتسز الذى قامت على أكتافه الدولة الخوارزمشاهية [٢] وتوفى سنة ٥٧٨ هـ [٣]. وقد كتب رشيد الدين الوطواط إلى الزمخشرى رسالة يستجيزه فيها يقول : « إن حضرة جار الله أوسع من أن تضيق على راغب فى فوائده وأكرمُ من أن تستثقل وطأة طالب لعوائده، ومع هذا أرجو إشارة تصدر من مجلسه المحروس إما بخطه الشريف فإن فى ذلك شرفاً يدوم لى مدى الدهور والأيام وفخراً يبقى على مر الشهور والأعوام؛ وإما على لسان من يوثق بصدق مقالته ويعتمد على تبليغ رسالته من المنخرطين فى سلك خدمته والراتعين فى رياض نعمته ورأيه فى ذلك أعلى وأصوب »[٤]. وقد أجازه الزمخشرى؛ يقول الوطواط من رسالة أرسلها يهنئ الزمخشرى بالعيد : « ولقاء سيدنا جار الله أدام الله مجده لنا معشر خدمه والمرتضعين درة فضله وكرمه عيد لا يزال العيد له كتصحيفه باقية محاسنه دائمة ميامنه . يهدى كل ساعة إلى أبصارنا نوراً وإلى أرواحنا راحة وسروراً »[٥]. وبعد وفاة الزمخشرى كانت له فى نفس تلميذه مكانة الإجلال والتقديس حتى إنه ليبغى تصحيح ما حرّف من بعض مؤلفات أستاذه . يقول الوطواط من رسالة لبعض الأفاضل أرسلها : « وقعت فى يدى نسخة من كتاب أساس البلاغة وقد أرى فيها من التصحيفات مالا أصادف من دينى فسحة فى إغفاله فإن تفضل سيدنا أدام الله أيامه بإنفاذ المجلدة الأولى من النسخة المقروءة على الإمام السعيد جار الله قدس الله روحه لأقابل سقيمه بصحيحه وأبالغ فى تقويمه وتصحيحه حاز منى شكراً طويل الذيل وثناء متدافع السيل »[٦].

---

(١) معجم الأدباء لياقوت ج ١٩ ص ٢٩ .

(٢) Literary History of Persia p. 309

(٣) نفس المصدر السابق ص ٣٣١ .

(٤) ج ٢ من مجموعة رسائل رشيد الدين الوطواط ص ٢٨ و ٢٩ — ط المعارف سنة ١٣١٥ هـ .

(٥) نفس المصدر السابق ص ٥٩ و ٦٠ .

(٦) المصدر السابق ص ٦٧ ج ٢ .

هؤلاء تلاميذه ممن أجاز وعلّم وأبناؤه الذين استغنى بهم عن النسل والذرية منحهم حبه ووده ورغبهم فى علمه بما رزقه من خلق فاضل وشخصية عالمة تذعن للحق مؤمنة وتدفع عن المسلمين الضر والخطب . فيحدثنا رشيد الدبن الوطواط عن خلق الزمخشرى العلمى الذى تكشف له فيما كان بينهما من حوار علمى يقول : « وقد جرى بينى وبينه فى حياته وأوقات راحاته مما يتعلق بفنون الأدب وأقسام علوم العرب مسائل أكثر من أن يحصى عددها أو يستقصى أمدها ، رجع فيها إلى كلامى ونزل على قضيتى وأحكامى فالسعيد من إذا سمع الحق سكتت شقاشق لجاجه وسكنت صواعق حجاجه — ثم يعدد هذه المسائل . . إلى أن يقول — : وإنما ذكرت هذا القدر اليسير ليعلم فتيان هذه الخطة أن هذا الإمام كان صبوراً على مرارة الحق وحرارة الصدق مع أنه ربُّ هذه البضائع وصاحبُ هذا الوقائع [1] فهو مع الحق ولو على نفسه .

ويكشف لنا الزمخشرى نفسه عن جانب من خلقه الجميل ونفسه التى صفتها حوادث الأيام فرفعتها فوق الماديات فى رسالته التى بعث بها إلى الحافظ السلفى : « ولا يغرنكم قول فلان فىّ ولا قول فلان — وعدّد جماعة من الشعراء والفضلاء مدحوه بمقاطيع من الشعر وأوردها كلها . . فلما فرغ من إيرادها كتب — فإن ذلك اغترار منهم بالظاهر المموه وجهل بالباطن المشوه ولعل الذى غرهم منى ما رأوا من حسن النصح للمسلمين وتبليغ الشقة على المستفيدين وقطع المطامع عنهم وإفادة المبار والصنائع عليهم وعزة النفس والربء بها عن السفاسف الدنيات والإقبال على خويصتى والإعراض عما لا يعنينى فجللت فى عيونهم وغلطوا فى ونسبونى إلى ما لست منه فى قبيل ولا دبير » [2] . وهكذا يكون العلماء حقاً خلق قبل علم ، وأدب قبل ثقافة ، ونفس تصفو ولا تجفو .

هذا عن تلاميذه ، أما عن آثاره فقد ذكر المترجمون لحياة الزمخشرى أن له نحو خمسين مؤلفاً فى فنون الآداب واللغة والترجمة والتفسير والحديث والفقه

---

(١) ص ٣٧٨ — ٣٨٠ من رسائل البلغاء نشرها كرد على — ط سنة ١٣٦٥ هـ .
(٢) وفيات الأعيان جـ ٢ ص ١٠٨ .

يعددها ياقوت فى التفسير ألف كتابه (الكشاف) موضوع بحثنا ، وفى الحديث ألف كتاب الفائق فى غريب الحديث[١]، وفى الفقه ألف الرائض فى الفرائض والمنهاج فى الأصول ، ثم فى علم الجغرافيا ألف المعجم الجغرافى الذى سماه (كتاب الجبال والأمكنة)[٢]، وفى الأدب ألف كتباً عدة ؛ فى أدب الترجمة ألف كتاب متشابه أسماء الرواة ، وكتاب شقائق النعمان فى حقائق النعمان فى مناقب الإمام أبى حنيفة ، وفى أدب المواعظ أنتج كتاب الكلم النوابغ فى المواعظ وكتاب أطواق الذهب فى المواعظ[٣]، وكتاب نصائح الكبار، وكتاب نصائح الصغار[٤]. وكتاب مقامات فى الوعظ[٥]، وكتاب الرسالة الناصحة، وكتاب شرح مقاماته . وألف مجموعة من الكتب فى الأدب الخالص — شعراً ونثراً — منها ربيع الأبرار فى الأدب والمحاضرات[٦] وكتاب تسلية الضرير ، وديوان خطب ، وديوان رسائل وديوان شعر[٧]، وكتاب شافى العى من كلام الشافعى . وفى النحو ألف كتاب نكت الأعراب فى غريب الإعراب فى غريب إعراب القرآن ، وكتاب النموذج فى النحو[٨]، وكتاب المفصل فى النحو أيضاً[٩] وألف كتاب المفرد والمؤلف فى النحو[١٠]، وكتاب الأمالى فى النحو . وألف حاشية على المفصل فى النحو ، ثم شرح المفصل فى النحو ، وشرح كتاب سيبويه ، كما ألف المحاجاة ومتمم مهام أرباب الحاجات فى الأحاجى والألغاز[١١] والمفرد والمركب . وفى اللغة له مؤلفات عدة منها كتاب مسميم العربية ، وكتاب أساس البلاغة[١٢]، وكتاب جواهر اللغة ،

---

(١) مطبوع .
(٢) مطبوع .
(٣) مطبوعان .
(٤) نصائح الصغار — مخطوط ببرلين والمتحف البريطانى .
(٥) مطبوع .
(٦) مخطوط بمكتبة بلدية الإسكندرية .
(٧) مخطوط بدار الكتب المصرية بالقاهرة باسم (ديوان الأدب) .
(٨ ، ٩) مطبوعان .
(١٠) مخطوط بدار الكتب المصرية بالقاهرة .
(١١) مخطوط بدار الكتب المصرية بالقاهرة .
(١٢) مطبوع .

وكتاب الأجناس، وكتاب مقدمة الأدب فى اللغة[١]، وكتاب الأسماء فى اللغة، وكتاب القسطاس فى العروض[٢]، وكتاب سوائر الأمثال، وكتاب المستقصى فى الأمثال[٣]، وكتاب أعجب العجب فى شرح لامية العرب[٤]؛ وله غير ذلك مؤلفات ذكرها ياقوت ولا ندرى من أسمائها موضوعاتها كما أن ياقوت نفسه لم يذكر كل مؤلفات الزمخشرى[٥].

وهذه المؤلفات إن دلت على شىء فعلى أن حياة الزمخشرى العلمية كانت حياة خصبة مليئة حيوية وإنتاجاً، وقد شغل الزمخشرى فى بدء حياته العلمية بالتأليف اللغوى والنحوى واتجه إليهما، بل إن الغالب على تآليفه كما نلمح فيما مر بنا — التأليف اللغوى والنحوى فنراه فى إحدى مدحه — كما سبق — يهدى كتابيه « شرح أبيات الكتاب » و « الأنموذج » لمجير الدولة أبى الفتح على بن الحسين الأردستانى الذى كان نائباً فى ديوان الطغراء والإنشاء فى عهد السلطان جلال الدنيا والدين أبى الفتح ملكشاه. ولعل من أول ما ألفه أيضاً كتاب « المستقصى فى أمثال العرب » وهناك حادثة يرويها ياقوت الحموى قد تحدد لنا شيئاً ما تاريخ تأليف الكتاب — وإن لم نقطع فى هذا برأى — يروى ياقوت قائلا: وسمعت فى المفاوضة ممن لا أحصى أن الميدانى لما صنف كتاب الجامع فى الأمثال وقف عليه أبو القاسم الزمخشرى فحسده على جودة تصنيفه وأخذ القلم وزاد فى لفظة الميدانى نوناً فصار النميدانى ومعناه بالفارسية الذى لا يعرف شيئاً فلما، وقف الميدانى على ذلك أخذ بعض تصانيف الزمخشرى فصير ياء

---

(١) مطبوع.

(٢) القسطاس فى العروض. مخطوط ببرلين وليدن.

(٣) المستقصى فى الأمثال مخطوط بدار الكتب المصرية بالقاهرة.

(٤) مطبوع.

(٥) من مؤلفات الزمخشرى التى ذكرها ياقوت فى معجم الأدباء ج ١٩ ص ١٣٣ — ١٣٥: مختصر الموافقة بين أهل البيت والصحابة. الأصل لأبى سعيد الرازى. ونزهة المستأنس مخطوط بأيا صوفيا — ورسالة المسأمة ومعجم الحدود، وضالة الناشد، وكتاب عقل الكل وروح المسائل، ورسالة الأشرار، وديوان التمثيل ويذكر بروكلمان أن للزمخشرى رسالة فى كلمة الشهادة وأخرى فى نص العشرة والقصيدة البعوضية وأخرى فى مسائل الغزالى وكلها مخطوطات ببرلين.

نسبته نوناً فصار الزمخشرن معناه مشترى زوجته[١] . إذن كان هناك تحاسد بسبب التأليف فى فن الأمثال بين الزمخشرى والميدانى . والميدانى توفى سنة ٥١٨ هـ. والبادئ بالحسد كما يروى الخبر هو الزمخشرى، فلعل مؤلفه فى الأمثال كان بعد مؤلف الميدانى، وإذن يكون قد ألف قبل سنة ٥١٨ هـ وفى حياة الميدانى خاصة. والزمخشرى يحدثنا عن أثر التأليف المحدث فى الناس بعد التأليف القديم ويعيد فى هذا ويبدى فقد يشير بهذا إلى غلبة الميدانى عليه فى هذا الفن وأنه هو البادئ بالتأليف فيه؛ يقول الزمخشرى فى مقدمة كتابه « المستقصى فى أمثال العرب » : « وكأنى بالعالم المنصف قد اطلع عليه فارتضاه وأجال فيه نظرة ذى علق ولم يلتفت إلى حدوث عهده وقرب ميلاده لأنه إنما يستنجيد الشيء ويسترذله لجودته ورداءته فى ذاته لا بقدمه وحدوثه وبالجاهل المشط قد سمع به فسارع إلى تمزيق فروته وتوجيه المعاب إليه ولما يعرف نبعه من غربه ، ولا صبره من ضربه ولا عجم عوده ولا نفض تهايمه ونجوده والذى غره منه أنه عمل محدث لا عمل قديم وحسب أن الأشياء تنتقد أو تبهرج لأنها تليدة أو طارفة ولله در من يقول :

إذا رضيت عنى كرام عشيرتى   فلا زال غضباناً على لئامها[٢]

ولبيبك حيث يقول :

فإن تك داعـــر رثت فواهـــا   فإنى واثق ببنى زيـــاد[٢]

ويظهر أن اتجاهه الأدبى اللغوى هذا كان اتجاهاً عامًّا فى التأليف أول حياته. ثم غلب على تأليفه الأدبى اللغوى عاطفة دينيه دافقة بعد أن اهتزت نفسه بما جرى لها من أحداث، وبعد أن خابت آماله فيما أمل، وأكسبته صلته بحكام البلاد الإسلامية وأولى الأمر فيها معرفة بحقيقة ما عليه البشر من نوازع وميول، وبعد تطوافه فى مختلف الأقطار الإسلامية وما شاهده فى حياته من رؤى

---

(١) معجم الأدباء لياقوت جـ ٥ ص ٤٧ .

(٢) مخطوط المستقصى فى أمثال العرب للزمخشرى ورقة ٢ .

وحوادث. وهو إلى جانب هذا كله من أسرة تقية دينة بل من بيئة دينية تحافظ على الدين ثم كانت سنه قد بلغت الخامسة والأربعين . فكان لذلك كله أثره فى صفاء نفسه ورقة شعوره وسمو تفكيره . وقد حدثت حادثة مباشرة غيرت مجرى حياته وصرفته عن الدنيا والأمانى فيها . يقول الزمخشرى متحدثاً عن نفسه : « فلما أصيب فى مستهل شهر الله الأصم (أى رجب) الواقع فى سنة ثنتى عشرة بعد الخمسمائة بالمرضة الناهكة التى سماها المنذرة وكانت سبب إنابته وفيئته وتغير حاله وهيئته وأخذه على نفسه الميثاق لله إن منّ الله عليه ألا يطأ بأخمصه عتبة السلطان ولا واصل بخدمة السلطان أذياله . وأن يربأ بنفسه ولسانه عن قرض الشعر فيهم ورفع العقيرة فى المدح بين أيديهم وأن يعف عن ارتزاق عطياتهم وافتراض صلاتهم مرسوماً وإدراراً وتسويفاً ونحوه ويجد فى إسقاطه اسمه من الديوان ومحوه وأن يعنف نفسه حتى تىء ما استطعمت فى ذلك فيما خلا لها فى سنى جاهليتها وتتقنع بقرصيها وطمريها وأن يعتصم بحبل التوكل ويتمسك . ويتبتل إلى ربه ويتنسك ويجعل مسكنه لنفسه محبساً ويتخذه لها مخيساً . ولا يريم عن قراره ما لم يضطره أمر خير لا يجد الصالح بدًّا من توليه بخطوه وألا يدرس من العلوم التى هو بصددها إلا ما هو مهيب بدارسه إلى الهدى ورادع له عن مشايعة الهوى ومجد عليه فى علوم القراءات والحديث وأبواب الشرع من عرف منه أنه يقصد بارتياده وجه الله تعالى ويرمى به الغرض الراجع إلى الدين ضارباً صفحاً عمن يطلبه ليتخذه أهبة للمباهاة وآلة للمنافسة . . . »[1] فالتأليف عند الزمخشرى منذ سنة ٥١٢ هـ تأليف يرمى إلى غاية دينية . نرى مصداق هذا فى مؤلف نحوى ألفه بعد سنة ٥١٢ هـ وهو المفصل فى صنعة الإعراب ، وكان شروعه فى تأليفه فى غرة شهر رمضان سنة ثلاث عشرة وخمسمائة وفرغ منه فى غرة المحرم سنة خمس عشرة وخمسمائة [2] فى هذا التاريخ الذى كان قد غلب فيه على نفسه التصوف والتنسك وأصبحت غايته من التأليف غاية

---

(١) ص ٧ — ١٠ من خطبة كتاب مقامات الزمخشرى .

(٢) وفيات الأعيان ج ٢ ص ١٠٧ .

دينيه نرى الزمخشرى يبدأ مقدمة كتابه المفصل بطعن الشعوبية الذين يرى فى مذهبهم مظهراً غير دينى . يقول الزمخشرى : « ولعل الذين يغضون من العربية ويضعون من مقدارها ويريدون أن يخفضوا ما رفع الله من منارها حيث لم يجعل خيرة رسله وخير كتبه فى عجم خلقه ولكن فى عربه لا يبعدون عن الشعوبية منابذة للحق الأبلج وزيفاً عن سواء المنهج . والذى يقضى منه العجب حال هؤلاء فى قلة إنصافهم وفرط جورهم واعتسافهم وذلك أنهم لا يجدون علماً من العلوم الإسلامية فقهها وكلامها وعلمى تفسيرها وأخبارها إلا وافتقاره إلى العربية بين لا يدفع ومكشوف لا يتقنع[١] . ثم الزمخشرى يرى أن لعلم الإعراب فضلا على التفسير القرآنى وعلى معرفة الإعجاز القرآنى وفى هذا نرى أيضاً مظهراً آخر للدافع الدينى لتأليف كتابه يقول فى مقدمة المفصل : « فإن الإعراب أجدى من تفاريق العصا وآثاره الحسنة عديد الحصا ومن لم يتق الله فى تنزيله فاجترأ على تعاطى تأويله وهو غير معرب ركب عمياء وخبط خبط عشواء وقال ما هو تقول وافتراء وهراء وكلام الله منه براء وهو المرقاة المنصوبة إلى علم البيان المطلع على نكت نظم القرآن الكافل بإبراز محاسنه الموكل بإثاره معادنه فالصاد عنه كالساد لطرق الخير كيلا تسلك والمريد بموارده أن تعاف وتترك»[٢].

ثم هو يقول أيضاً كاشفاً عن غايته من تأليف الكتاب فى مقدمة المفصل : « ولقد ندبنى ما بالمسلمين من الأرب إلى معرفة كلام العرب وما بى من الشفقة والحدب على أشياعى من حفده الأدب لإنشاء كتاب فى الإعراب محيط بكافة الأبواب مرتب ترتيباً يبلغ بهم الأمد البعيد بأقرب السنى ويملأ سجالهم بأهون السقى فأنشأت هذا الكتاب المترجم بكتاب المفصل فى صنعة الإعراب»[٣]. فهذه النصوص جميعها من مقدمة الكتاب متضافرة على أنه يبغى خدمة الدين بالعلوم العربية .

---

(١) مقدمة شرح المفصل الزمخشرى لابن يعيش . ط أوربا .

(٢) نفس المصدر السابق .

(٣) نفس المصدر السابق .

ثم لا نعلم بعد له مؤلفات أخرى فى هذا الوادى ولكنا نلقى بعدئذ الكتاب الذى كشف لنا عن تاريخ تنسكه وغلبة الدين على نفسه وهو كتاب « مقامات الزمخشرى » ويظهر أنه ألفه بمكة وأهداه لابن وهاس فى جواره الأول، فإنه يقول فى مقدمته : « أسأل الله أن يفعم لك سجال النعم ويعيناك على إفادة أهل الحرم وإفادة الوفاد من أقاصى البلاد ويكتبك ببركة هذا البيت العتيق فى زمرة العتقاء من النار ويثبت اسمك فى جملة الأبرار الذين لهم عقبى الدار »[١] ألفه بعد مرضه سنة ثنتى عشرة وخمسمائة وتممه خمسين مقالة يعظ فيها نفسه وينهاها أن تركن إلى دينها الأول ليتعظ غيره ويعتبر[٢] وفى كتابه هذا ينحى باللائمة على من يسخرون علمهم وأدبهم للملوك مفيداً من تجربته الشخصية[٣] وينعى — وهو قد عاشر الملوك وذوى الجاه — على من يذلون للملوك دونه ذلهم لله[٤] ويحط الزمخشرى — وقد بدأ حياته مداحاً من شعر المدح الذى يقدم بين يدى الملوك[٥] ثم يطلب من نفسه أن تنأى عن حب الشهرة وطيران الاسم فى الآفاق[٦] ونلمس فى الكتاب صدق العاطفة وحرارة الشعور وتدفق التعبير لأنه صورة قولية من حياة منشئه .

ثم كتاب آخر نجده للزمخشرى يكشف عن هذا الدافع الدينى له على التأليف وهو كتابه « الفائق فى غريب الحديث » وقد أتمه فى شهر ربيع الآخر سنة ٥١٦ هـ[٧] . يقول الزمخشرى فى مقدمة كتابه مبيناً الغاية الدينية التى سيطرت عليه ودفعته إلى التأليف فى غريب الحديث ؛ تلك الغاية التى كانت ترمى إلى رضا الناس عنه وجميل ذكرهم له بعد رضوان الله عليه والأمل فى

---

(١) مقامات الزمخشرى ص ٤ و ٥ .
(٢) مقامات الزمخشرى ص ١١ .
(٣) مقامة الظلف ص ٧٢ — ٧٨ من مقامات الزمخشرى .
(٤) مقامة العبادة ص ١١٨ — ١٢٢ من مقامات الزمخشرى .
(٥) مقامة اجتناب الظلمة ص ١٣١ — ١٣٧ من مقامات الزمخشرى .
(٦) مقامة الخمول ص ١٨٥ — ١٨٩ من مقامات الزمخشرى .
(٧) كشف الظنون لحاجى خليفة . ط أوربا ج ٢ ص ١٢١٧ .

جزيل الثواب منه؛ يقول: « وقد صنف العلماء رحمهم الله فى كشف ما غرب من ألفاظه واستبهم وبيان ما اعتاص من أغراضه واستعجم كتباً تنوقوا فى تصنيفها وتجودوا واحتاطوا ولم يتجوزوا وعكفوا الهمم على ذلك وحرصوا واغتنموا الاقتدار عليه وافترصوا حتى أحكموا ما شاءوا واترصوا ... ولم يدع المتقدم للمتأخر خصاصة يستظهر بها على سدها ولا أنشوطة يستنهضه لشدها ولكن لا يكاد يجد بدًّا من نبغ فى فن من العلم وصبغ به يده ، وعانى فيه وكده من استحباب أن يكون له فيه أثر يكسبه فى الناس لسان الصدق وجمال الذكر ويخزن له عند الله جزيل الأجر وسنى الذخر وفى صوب هذين الغرضين ذهبت عند صنعة هذا الكتاب . . فأية نفس كريمة ونسمة زاكية نور الله قلبها بالإيمان والإيقان مرت على هذا التبيان والإتقان فلا يذهبن عليها أن تدعو لى بأن يجعله الله فى موازينى ثقلا ورجحاناً ويثيبنى عليه روحاً وريحاناً»[1] بل هو يستشفع الرسول صلى الله عليه وسلم بمؤلفيه « الفائق» وتفسيره « الكشاف» فيقول :

فهل تتلقانى شفاعة أحمـــد وعفو كريم للإساءة ما حص
وهل يكشف الكشاف والفائق العمى إذا تليت يوم القضاء القصائص
يمد الكتاب النور والسنة السنا متى لخصت فى الجامعين اللخائص[2]

وفى جواره بمكة ذلك الجوار الذى حفل بنشاط علمى موفور ألف أيضاً كتابه « أطواق الذهب فى المواعظ والخطب» وهو مؤلف قبل تفسير الكشاف إذ قد ورد نص منه فى الكشاف ولكن ليست تسميته بأطواق الذهب هى التسمية الأصلية بل التسمية الأولى دون تزويق هى « النصائح الصغار»[3] . يقول

---

(١) الفائق فى غريب الحديث للزمخشرى ج ١ ص ٢ و ٣ الطبعة الأولى بحيدر آباد الدكن لسنة ١٣٢٤ هـ .

(٢) مخطوط ديوان الأدب للزمخشرى ورقة (٦٦) .

(٣) يرى باربيه دى مينارد ناشر « أطواق الذهب» طبعة أوربا أن التسمية الأصلية « النصائح الصغار» نسيت وبقيت أقدم تسمية لناشر كتاب الزمخشرى وهى التسمية المزوقة « أطواق الذهب » .

الزمخشرى فى تفسير الكشاف : « وفى النصائح الصغار املأ عينيك من زينة هذه الكواكب وأجلهما فى جملة هذه العجائب متفكراً فى قدرة مقدرها متدبراً حكمة مدبرها قبل أن يسافر بك القدر ويحال بينك وبين النظر »[١] وهذا النص بعينه فى « أطواق الذهب » فى الصفحة السابعة والتسعين . و« أطواق الذهب » يهدف أيضاً إلى غاية دينية فهو للعظه ثم هو مظهر من مظاهر التحول الذى طرأ على حياة الزمخشرى فلونها بلون الزهد يقول الزمخشرى فى مقدمة كتابه: « وأرغب إليك أن تجعل عقيدتى وطويتى وبديهتى ورويتى وما خط بنانى خطر بجنانى وكل ما ألفته من أقوالى وكلمى وأسلة مقولى على سن قلمى خالصة لك ومن أجلك مطلوبة بها نفحات سجلك وأن تفيض على هذه المقالات من البركة والقبول ما يهبها مهب الجنوب والقبول وأن تحفظ فيها ما أوجبت للجار من حق الذمام والذمار لأنها وجدت فى حرمك المطهر وولدت فى حجر بيتك المستر »[٢] .

والكتاب كله ثورة على النفس الأمارة بالسوء وثورة على الأوضاع الاجتماعية فى عصره . فهو يحمل على الفلسفة والتنجيم[٣] وعلى السلاطين الظلمة[٤] ويغمز الزعماء والطغاة[٥] ويدعو على عبيد السلاطين الظلمة[٦] ويهجم بعنف على النقلة المقلدين[٧] ويغمز القضاة المرتشين[٨] ويلوم المستجدين[٩] وينصح لعبدة المال أن يفكوا إسارهم من عبادة الدرهم والدينار — وألا يرجوا من الملوك خيراً أبداً[١٠] ويطعن عبدة المال من العلماء الذين يطلبون بالدين

---

(١) تفسير الكشاف ج ١ ص ١٨٢ .
(٢) مقدمة أطواق الذهب فى المواعظ والخطب ص ٤ — ٧ .
(٣) أطواق الذهب المقالة الثالثة والعشرون ص ٣٠ — ٣١ .
(٤) أطواق الذهب المقالة الثانية والثلاثون ص ٤١ و ٤٢ .
(٥) أطواق الذهب المقالة السابعة و عشرون ص ٣٥ ، ٣٦ .
(٦) أطواق الذهب المقالة السادسة والثلاثون ص ٤٥ ، ٤٦ .
(٧) أطواق الذهب المقالة السابعة والثلاثون ص ٤٦ ، ٤٧ .
(٨) أطواق الذهب المقالة الأربعون ص ٤٩ ، ٥٠ .
(٩) أطواق الذهب المقالة الثالثة عشرة ص ٢٠ .
(١٠) أطواق الذهب المقالة الثالثة والثلاثون ص ٤٢ ، ٤٣ .

الدنيا[١] وينقد المرائين فى العبادة[٢] ويتجه بالنصحية إلى الملوك العبيد الذين عليهم أن يذلوا لله الملك القهار[٣]. ولما رأى الزمخشرى من الحياة ما رأى وشاهد من أدواء المجتمع الإسلامى ما شاهد اعتزل ودعا إلى العزلة[٤] وغلب عليه التدين فعلم العبادة لديه خير العلوم[٥] واستأثرت به العاطفة الدينية فتصوف ودعا إلى التوكل فشفاء المرضى توكلهم لا استشارتهم الطبيب[٦].

ومن تلك الكتب التى طبعت بطابع التنسك والتى ألفها الزمخشرى بمكة كتابه « نوابغ الكلم» وفى هذا الكتاب نرى زبدة تجاربه فى الحياة وصورة من شخصيته مطبوعة فيما يجريه من مثل. والكتاب مؤلف قبل تفسير الكشاف. يقول الزمخشرى فى الكشاف[٧]: « وفى نوابغ الكلم صنوان من منح سائله ومنّ، ومن منع نائله وضن[٨] وفيها طعم الآلاء أصلى من المن وهى أمر من الآلاء مع المن »[٩].

وله مؤلفان نحويان ألفهما بمكة ولا ندرى — على التحديد — متى ألفا ولعلهما مؤلفان فى جوار الزمخشرى الأول بمكة، أحدهما «المفرد والمؤلف» أهداه لأهل مكة. وفى مقدمته يقول: «هذا كتاب المفرد والمؤلف عملته لذوى السابقة والكرم من ساكنى الحرم عمل من طب لمن حب وتوخيت فيه قيد الأوابد وصيد الشوارد وتقريب ما يبعد عن الفهم وتسهيل ما تصعب إلا على الشهم وضمنت لمن يضبط هذا الترتيب ويحذو هذه الأساليب أن يضرب له مع المعربين بسهم الفارس ويطير اسمه بينهم بضرب القوانس. وسألت ربى

---

(١) أطواق الذهب المقالة الثالثة والأربعون ص٥٣ — ٥٥ والمقالة الثالثة والثمانون ص٩٨،٩٩.
(٢) أطواق الذهب المقالة الحادية والخمسون ص ٦٤.
(٣) أطواق الذهب المقالة الثانية والخمسون ص ٦٥.
(٤) أطواق الذهب المقالة السابعة ص ١٤.
(٥) أطواق الذهب المقالة السادسة والخمسون ص ٧٠، ٧١.
(٦) أطواق الذهب المقالة الثالثة والخمسون ص ٦٦، ٦٧.
(٧) تفسير الكشاف ج ١ ص ١٢٥.
(٨) النص ص ٨ و ٩ من نوابغ الكلم — الطبعة الأولى بالمطبعة الكلية سنة ١٣٣٢ هـ.
(٩) النص ص ١٩ من نوابغ الكلم.

أن ينطق فى ألسنتهم بحق ويجعل لى منهم لسان صدق وحسبى بثنائهم فخراً مشيداً وبدعائهم ذخراً مخلداً» [١] فهو يتوسل بدعاء ساكنى الحرم له عند الله . وأما ثانيهما فهو كتاب « محاجات ومتمم مهام أرباب الحاجات فى الأحاجى والأغلوطات » ولعل الكتاب مهدى إلى ابن وهاس أمير مكة الذى يستشفع بدعائه له عند الله . يقول الزمخشرى فى مقدمة الكتاب: « وهذه أيها العذرى العلامة بعقايل الأفكار العامرى الصبوة إلى خرايدها كلما برزت عذراء فايدة عن خدرها فأومضت نفاثة فى عقد سحرها أخذتها فضممتها إلى كتبك وأسكنتها خزانة لبك فالتقطته حبة قلبك وتعاطته سلافة حبك حرصاً منك على نشدان ضوال الحكم واقتناص أوابد النكت على أن حق الحكمة بأبلغ من ذلك قمن وما لك إلا ما شدوت منها ثمن .

ثمان[٢] مسائل نحوية مسوقة فى مسالك المحاجاة فى سلوك المعاياة لا تستملى منها مسألة إلا سقطت على أملوحة من الأماليح العلمية وأفكوهة من الأفاكيه الحكمية تراض شكائمها وتنقاد الأذهان حتى ترجع بعد جهات الإباء سلسات العنان فتلقها تلقى الهايم المستهتر واعتنقها اعتناق الغايب المنتظر وأكرم موردها عليك وأعز موفدها إليك وبوئها من رغبتك حق مبائها واجعل قراها مواصلة قراءتها ولا تخل منشها من بعض دعواتك فى بعض أدبار صلواتك لعل دعوة منها ترفع ولعلك تُشَفع لى فتشفع أنك على باب رحيم ودود مفتوح لائذ[٣] ببابه غير مردود وهو حسبنا ونعم الوكيل[٤] .

ثم فى مكة ألف كتابه — فى جواره الثانى — فى التفسير « الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل» وسنعرض له بعد . ثم بعد الكشاف ألف كتابه الأدبى « ربيع الأبرار» والذى حداه إلى تأليفه ما يسوقه فى مقدمته

---

(١) مخطوط المفرد والمؤلف للزمخشرى ورقة ١ .
(٢) هكذا ولعل هناك سقط قبل ذلك .
(٣) فى الأصل (لاذ) .
(٤) مخطوط محاجات ومتمم مهام أرباب الحاجات فى الأحاجى والأغلوطات ورقة ١ .

إذ يقول: « هذا كتاب قصدت به إجمام خواطر الناظرين فى الكشاف عن حقائق التنزيل وترويح قلوبهم المتعبة بإجالة الفكر فى استخراج ودايع علمه وخباياه والتفتيش عن أذهانهم المكدودة باستيضاح غوامضه وخفاياه وأن يكون مطالعته ترفهاً لمن قل والنظر فيه أحماضاً لمن اختل» ويظهر أنه ألف هذا الكتاب فى أثناء رحلته عائداً إلى وطنه بعد جواره الثانى . ثم من مؤلفات الزمخشرى بعد تفسيره الكشاف كتاب « أساس البلاغة» وفى هذا الكتاب نرى نصوصاً من كتابه الآخر « نوابغ الكلم » المؤلف قبل تفسير الكشاف فى مادة « ج د ب» من أساس البلاغة يقول : (وفى نوابغ الكلم من كان آدب كان رحلة أجدب»[١] وفى مادة (رق ن) من أساس البلاغة يقول: « العلم درس وتلقين لا طرش وترقين»[٢] ثم ورد ذكر الكشاف فى مادة (ح ف ر) من أساس البلاغة يقول الزمخشرى عندها: « وقد ذكرت حقيقة الكلمة فى الكشاف عن حقائق التنزيل »[٣].

فكل تلك النصوص تومئ إلى أن الكتاب مؤلف بعد تفسير الكشاف ، والكتاب بعد خادم لقضية الإعجاز القرآنى بما يوقفنا عليه من تلون التعبير الأدبى بأساليب الحقيقة أو المجاز . وهو إذن من وادى الكتب التى ألفها الزمخشرى فى الطور الأخير من حياته مدفوعاً بالعاطفة الدينية التى غلبت عليه . يقول فى مقدمة أساس البلاغة: « ولما أنزل الله كتابه مختصًّا من بين الكتب السماوية بصفة البلاغة التى تقطعت عليها أعناق العتاق السبق وونت عنها خطا الجياد القرح كان الموفق من العلماء الأعلام أنصار ملة الإسلام الذابين عن بيضته الحنيفية البيضاء والمبرهنين على ما كان من العرب العرباء حين تحدوا به من الإعراض عن المعارضة بأسلات ألسنتهم والفزع إلى المقارعة بأسنة أسلهم من كانت مطامح نظرة ومطارح فكرة الجهات التى توصل إلى تبين مراسم البلغاء والعثور على مناظم العظماء

---

(١) أساس البلاغة ج ١ ص ١١٠ .

(٢) أساس البلاغة ج ١ ص ٣٦٤ .

(٣) أساس البلاغة ج ١ ص ١٨٤ .

والمخابرة بين متداولات ألفاظهم ومتعاورات أقوالهم والمغايرة بين ما انتفعوا منها وانتخلوا وما انتفوا عنه فلم يتقبلوا وما استركوا واستنزلوا وما استفصحوا واستجزلوا والنظر فيما كان الناظر فيه على وجوه الإعجاز أوقف وبأسراره ولطائفه أعرف حتى يكون صدر يقينه أثلج وسهم احتجاجه أفلج وحتى يقال هو من علم البيان حظى وفهمه فيه جاحظى وإلى هذا الصوب ذهب عبد الله الفقير إليه محمود بن عمر الزمخشرى عفا الله عنه فى تصنيف (كتاب أساس البلاغة)»[١].

ولكن الكتاب خادم لقضية الإعجاز من وجهها الاعتزالى فهو تحقيق عملى لرأى المعتزلة فى أن معظم اللغة مجاز يكشف عن ذلك الزمخشرى فى كلامه عن خصائص الكتاب إذ يقول فى المقدمة: «ومن خصائص هذا الكتاب تأسيس قوانين فصل الخطاب والكلام الفصيح بإفراد المجاز عن الحقيقة والكناية عن التصريح»[٢] فنراه يعقب كل مادة بالعبارات التى وقعت مجازاً فيها .

وكتابه «أعجب العجب فى شرح لامية العرب» ألفه بعد أساس البلاغة ولا ندرى لمن يسوق مقدمته إذ يقول: «هذه نكتة قذفتها خواطر خاطرى وفائدة جردتها نواظر نواظرى . . جعلتها على شرح قصيدة الشنفرى الموسومة بلامية العرب تحفة أتحفت بها الخزانة السعيدية والحضرة العزية ذا الآلاء المتظاهرة والنعم الوافرة تنتهى المفاخر فى العلوم إليه وتثنى الخناصر فى الآداب عليه . . وخطابى لمن نشأ فى علم الإعراب وحقق فى ميادين أفكاره بالعجب منه والإطراب وسرد علمى المعانى والبيان وعرف التحقيق فيهما من التبيان وطالع أساس البلاغة وعرف براعة اليراعة . . . إلخ »[٣] .

وآخر تآليفه فيما نعلم كتابه «مقدمة الأدب» ألفه لتعليم الفرس اللسان العربى وقد أهداه إلى الأمير أتسز الملك الخوارزمشاهى [٤] «مقدمة الأدب ص ١ — ٣» كما مر بنا قبل .

---

(١) مقدمة أساس البلاغة جـ ١ صفحة (جـ) .

(٢) مقدمة أساس البلاغة جـ ١ صفحة (د) .

(٣) ص ٢ ، ٣ من مقدمة أعجب العجب فى شرح لامية العرب للزمخشرى — الطبعة الثالثة سنة ١٣٢٨ هـ — مصر .

(٤) مقدمة الأدب ص ١ — ٣ .

تلك هى سمات النشاط العلمى الذى حفلت به حياة الزمخشرى كما استطعنا أن نتبينه من المؤلفات القليلة التى أبقاها الزمن . غير أنه يتصدرها جميعاً مؤلفه فى التفسير « الكشاف» فهو الذى يمثل قمة مجده العلمى بحق — كما نرى — إذ أودعه الزمخشرى خلاصة علمه ولب معارفه وامتزج فيه صدق العاطفة نحو الاعتزال كمذهب ونحو الإسلام كدين وقوة العقل بما استودعه من علم كلامى ونضج المعرفة بما وعاه من ثقافة متعددة الأطراف .

obeikandl.com